

أبو عبدو البغل



يحيى دريد الخواجة

التمرير

درید یحییٰ الخواجه

القریر

قلم

سلسلة قصص وروايات عربية

« ٦ »

على شاشة المرآة

سحبت مقهى استراحة : « محطة الانطلاق » بعيني
وأنا أتخفف من محفظة معلقة على كتفي إلى القيت بعض
الكتب والمجلات على الطاولة أمامي . ثم أخذت قفا
عميقاً ، وأسلت كياني إلى الكرسي ..

الدفء سرى قليلاً قليلاً ، ما تزال اتفاضلات :
« المدينة » من الزمهرير وسيط المطر اللادغ والرعود ..
تعصف بالوجوه المحتية من الخارج . العيون تلحظ
لوهلة عند المدخل ، تلتقط مكاناً التقاط الأنفاس ثم تجري
تلوذ به .

الشيء له طعم الصل المر . متعب من السفر .
أصابني صفاء ذهني مباغت مثل ذلك البرق الذي يسلا
الناس والأشياء لحظة يسود ... ثم لزمت شعور من
أضاع شيئاً يركض وراءه باستمرار ...

ان بعض الكسل راح يعاشرني بوقاحة . لكنه اختفى .
حل محله الرغبة في السر ، ومغالبه الوهن ، واستيطان
الداخل ..

هذا إيقاع بدائي ضاجء من الضيق ، والمشاعر
المتداخلة بين الألم وما يشبه النشوة .. فيه توقع من يترقب
ان يقبض على فكرة مركزية في حياته - اختلج في
أقدامه للحظات وهي تدق الأرض بعصية .

الساعة تقارب الواحدة . هكذا قدرت ، دون ان
أجد رغبة في النظر الى العقارب السائرة ..

فراغ الشوارع المظلمة معلق بين العاجين . ومايل
الماء التي غطت بها أو جزتها في طريقي الى هذا المكان
تعرف أفكارا معينة الاحتماء في دماغي حيناً .

« يا هؤلاء الناس اللتجئون من حولي . اشعر انكم
ضروريون لي أنفغم بكم واتداخل معكم » .. فقراء ،
غرباء على الغالب عن المدينة الصعبة .. بعض يصبء هنا
الى الصباح . ثم يتطلق ليعمل حالاً ، أو بائع بطة
متنقلة ، أو ميا في حانوت ، أو علاملاً في ورشة صغيرة ،

أو يدفع عربة صغيرة أو يوزع جرائد الصباح على الموائد ،
أو يساوم الرياح في بضاعة محبة جيلة مشيرة .. وبعض
قدقهم حياة التشرذ والتسكع الى سقف هذه الاستراحة
حيث تقبل أوامر المعلم الكبير بإيوائهم ما داموا يملكون
مالاً يتناولون به شيئاً .. وآخرون من العباد ذكورا
وإناثا ، قدموا لحاجات ملحة شتى من نواحي البلاد
المتناثرة ، يقضون ليلتهم جالسين أحياء أو واقفين ، ثم
يفادرونها مع خيوط الفجر الأولى .. وبين تلك الأكوام
البشرية ، يتبول دائما قومٌ ليلَ نهارٍ ، يهجمون على
فتاب الطاولات لا يخفون جوعهم . فئة منهم تتصنع مشهد
من غدرت بها الحياة وبها أثف فتطلب في لطف وحياء شيئاً ،
أما الفئة الأخرى فمن الشباب يعاني أزمات تقية حادة
أو ظروفا لا ترحم . ترى واحداً ينكب على تفة ساعات
ثم يمي الخارج برهة تسمح له أن يخطف سيجارة أو
يقطع لقمة أو يشرب قليلاً من فنجان أو كأس .. تمتد
يده الى حاجته وهو يتم ابتسامة من يمر على همه
ووجهه ثم يودع الزبسون بإشارة لها معنى لا تعمد
الإحساس . بتقبل المشاركة والحض عليها .. معلم

المتمنى يتغاضى عن هؤلاء ، لأنهم يتحصلون على بعض النقود تذهب الى صندوقه ، بالإضافة الى ان لديهم موهبة فئة وإمكانات في جلب الزبائن الأجانب ، وفي تغطية التعامل معهم ، وحوارهم .

كنت أفكر في كل ذلك وأنا لاحق ذرات الدخان تصعد في كل اتجاه . تشقت دخاني بقوة . عبر الدخان تلامحت أثني تسرت عند العتبة الواسعة . وحيدات وأنظار آخرين التفتت الى قامتها الطويلة ولباسها الفضفاض المفاير وسات وجهها العادة . التعب أنهكها . ها هي ذي تجد طريقها الى كرسي فارغ قبالي .

تجاهلتها أول الأمر بعد أن تمحصتنا العيون . حاولت ان اساعدها بنشر سترتها الواسعة على طرف الطاولة . تشاغت وقتاً بمراقبة قطرات المطر الثقيلة خلال النافذة . . كانت القطرات ترتد عن الأرض عبر الباب كأننا تصطدم بنا بفض قوي إذ تنهد الى أعلى محدثة رشاشاً ضباباً يمرقل السيارات ، فيفرق أقدام الراهة . كنا نرى بعض السيارات تقف على طوار الرصيف ، تفري فينا إحساس

الترحل • بعض الأعياء الذي أحس به ، سرعان ما يزول —
 كالعادة عندما أهدأ قليلاً • هدير العافلة الشعبية ما يزال يبعث
 أذنيّ • ساعات طويلة مرت على ركوبي من محل إقامتي
 إلى العاصمة • الأتني ترسل تنهيدة وصلت ألقاسها إلى
 وجهي • انزلقت الدماء في عروفي مثل ماء متجمع وجد
 مرباً له • أيها الفرح المخايل ازلّ في أعصاقي ! • المرارة
 العتيقة العانية لا ترك غيرها يسود • كم أحتاج إلى الحديث
 معها ! نعمت في الأتني • هلاّ توقفت عن الإطراق ؟ ! •
 أنت مشوقة نرتيك • البرد قرص وجتيك وجلد ما
 حول عينيك المتاملتين وشق شفتيك • شعرك يشعث مثل
 تصوراتي • شعاع وجهك دائخ مثل المصفاة لكن في
 كل مقلة طير ينهض • جمالك ليس بضاً طرياً ، يد أنه
 يشدني إلى أن أرهب السحابة وأودعه في كياني • أعلق
 بك ... لا أدري ! • • أصحابك ؟ • دمي جفّ في هذا
 الليل الذي يتأوى في ما بيننا • لا تردني خائباً •
 أنت تسلطين ! • كأنك تعبرين على سكين تخفيها في
 صدرك • ها نحن تدثرنا طويلاً برداء الصمت على مقعد
 الانتظار • • أما حان الكلام • •

يفرج اللحظة صوتي منكبا طيبا :

— أترين ا .. ليتنا بطولها ، زلزالية ، كنت أقم أكثر
من مرة حتى وصلت الى هنا . ماذا نعمل . علينا ان
تعمل الأعباء ..

أردت أن أخفف من معاناة الجو والحياة عليهما ،
وأحرك اللحظة المجيدة بينا . . بدأت تهز رأسها كمن
ينوء تحت قيد ، ثم تختصر ردها بأقل العبارات كلفة
قائلة :

— المناخ قاسم .. حقا .. والليل سيئ . ومع ذلك
فإني أحب لخب الطبيعة في انشاء ، إنه يجعلني متيقظة
دائما . يؤنس في نفسي شيئا محتملا . كلماتها تثيرني .
أقول بعد أن ارعدت الدنيا مثل جرار فارغة هائلة الأحجام
والاعداد إذ تكرر على أرض صلبة .

— يبدو أن الطوفان قادم ليفرق العالم ..

— أحسن ! . (تقول الأشي اسم التفضيل كما لو
كانت ترميه الى قمر) لأخرج لها علة الدخان :

— سيجارة ! . أقدم لك نفسي : « حمام نصر » من

بلد عربي شقيق • لم تمنع • تناولتها بأصابع عشية تقاوم
الجفاف :

— شكراً .. « هبة جناحي » من القبلة ذاتها .
اترى ! • هنا بعضنا أو هناك • أقطار المروبة غير متباعدة
لا في اسائنا — كما يبدو — ولا في اشيائنا وأحوالنا
من يدري من أين قدم الآخرون أيضاً ..
اقول لها وأنا أضرم النار :

— قليل من التبغ يدفع القلب • اليس كذلك ؟
رقصت ابتسامة سريعة على شفثها • انقلبت فجأة
الى الكسار تكوم على جانبي فيها • تصفح الناس في
المكان كأنها تقرأ في كتاب • أمواج العينين تخرج من
المحجرين ثم تشير إليها :

— يظهر ان هؤلاء جيعاً • يحتاجون الى شيء ما
يدفع قلوبهم •

تهزه الملاحظة • يرى أنها تجره الى بعض من أفكاره
وأحاسيسه •

زمردة هي تخرج من الشدة ، والليل الطويل ..

كلما اعتقدت في لحظة الضباب أن الدنيا بخير، تكشفت
لي أكثر قوة ما أظن . دنيانا تنفجر بؤساً ومرارة، تتآمر
عليها جهات متعددة ، وإن بقيت حافلة بالعيون
الجيالة العميقة التي تحدى الشقاء والمحنة .
أفعل يا إيجابية ووضح كأنني أتلقف حروف - ملف -
أخاف قراءته :

- كثيرٌ منا يزرع الآمال والجهد فيحصد الخيبة .
اندرين ؟ . الملاحظة التي أشارت الى هذا الجمع ، أفادت
إحصاءاً يتنامى عندي كلما وضعتُ رحالي هنا مرة . كل
أسبوع أسافر من مدينتي الى العاصمة مدة يومين متتابعة
تحميلي الجامعي . على طاولة من طاولات استراحة هذه
المحطة أقضي ما تبقى من الليل ، قبل أن أصل الى
الجامعة . أعطف على هذا الجو الرمادي ، وانتظر أتلخص
عبر الحياة - الموت في هؤلاء المسافرين من جرح الى
جرح الذين لا يجدون أجرة فندق يؤويهم . صامتون .
متسلطون الى قرارة النعاس والتعب عند بوابة الانتظار
كأنهم لن يقوموا . تبرز أسئلة عند سِكنتي . أشعر

انتي في سبيلي الى طريق سدود : وسأبقى منتظراً الى
الأبد دون جدوى . في وقتنا هذا ، لم يعد يفيد أمثالنا
السير المرهق في أي اتجاه، أرى الأصابع المتورمة ، والدمعات
المبحرة في العيون ، والأصوات الصدئة ، والاعمار الفائلة
ثم أقفد بنفسي . أقرأ شيئاً من تجربة الحياة في داخلي تلك
التي توقني الى اللوبان . أغدو حيس شيء يهدم
ولا يعوض . . شيء أثبته بالهزيمة بالمقارنة مع من لا يحزن
حزناً ولا يعرف صبرنا على البلوى ونشطان الدم في
إدراك حاجاتنا . .

التبهرت الى أنني أتكلم بتأثر وصدق ، جر يمتد
بيني وبينها بقوة تنسجه المعاني والأحاسيس في حضرة
وجهها ، استخرج غفوات التذكر والهواجس وأجدها
شاهدة رائعة على كل ما أفضي به .

قبل أن يجيء دورها بالعبور إليّ بعوارها ، طلبتُ
فجائين من القهوة .

يلفر صوتها شجياً يتقاوى . . كأننا ينبس الما من
حيث أمسكت به :

— وأنا قادمة على الطريق ... راكب الدرجة الثالثة
في السيارة بجاني اتباع رغبين من الخبز في وقفة
الطريق . وعندما قطف قطعة ملا بها فيه ، وراحت تصرصر
تحت أسنانه . التفت اليّ : اظري ! .. حتى كسرة
خبزنا غدت معجونة بالسوس والحجارة .

أبقى البحث عن اللقمة ساراً من مامر نمنا
تلق أعناقنا ولبضنا فولد همّاً ، ونعيش هنا في القبيلة
العريّة .

إنه عذابنا يبدأ من تأمين الرغيف الذي تقوم به
عظامنا . هنا أو هناك تحت السوات العريّة تكبر أخطاء
ضد إنسانيتنا ، يظفر الهواء والماء والنار والأرض ، ويبقى
إنساننا رخيماً .. كيف يحصل هذا ؟ ! كيف ؟ ! .. و ..
عن الهم . لا يستطيع أحد أن يعجب نفسه عندما يدخل
واخلفات .. شيء في صدرها وعنقها بنمض اللحظة .
تدخل مداراً ينهشها من الداخل وتريد أن تحمي بالتعبير
عن الهم . لا يستطيع أحد أن يعجب نفسه عندما يدخل
استراحة محطة الاطلاق هارباً من عسى الليل في الأزقة
والشوارع . كأنها عرفت ما يدور بخاطري . فتبادر
بحيرة قائلة :

— شيء فظيع أن نموه أقمنا • طوبى الذين يمتنون
عن أقمهم • فجأة يحضر النادل القهوة • انقطعت اللغة
قليلاً ، دخان التبغ يسمى هائماً في ظلال المكان وأضوائه ،
يمتزج بالهواء والناس • المدخل يؤدي إلى طاولات رصفت
على جانبي الجدران من اليمن والشمال ، بينما يشغل
الوسط حاجز خشبي يضيوي عليه سند خشبي مسطح
يصل طرقاه إلى الجدار في الخلف حيث عتق — المطبخ
المسقوف ، وحيث الأبخرة والروائح تنطلق منه •

الأنظ بعض العاملين يبقى داخل الحاجز يقدم الشاي
والقهوة والحليب وأنواعاً من المأكولات الخفيفة لمن وقف
أو جلس إلى الحاجز على مقاعد عالية •• وبمضاً آخر
يتناول الطلبات من الداخل ليقدمها إلى الطاولات •• وبين
هؤلاء وهؤلاء من الزبائن كانت حشود من الضادين
والرائحين •• شيء من التثوق والانشغال والفوضى
واتساخ الدم الذي يلوي الأعناق يستوفز في انقاس
الغالبية • الحركة نضت قليلاً قرب المرحاض الملاصق
للمطبخ ، كما أن الباب الجانبي في الجدار الشمالي الذي

يخفي الى فناء المرآب الواسع حيث ضجيج المسافرين
والحافلات — تطلقه الآن يد غليظة •

كما معاً تشهد الاغلاق ، ونقلب الأكرار • نراها في
الأحداق • صديقتي يقول حالها : « كل منا يحمل معاناة »
بعض الأحشاء تنام على الطاولات ، تستريح رؤوس بشرية
قبل أن تقطع عن أجسادها الى الأبد •

تسحب صديقتي سيجارة من الطبقة المرمية بيني وبينها
وتستمع إليّ :

— حاولت مراراً أن أغفو على هذه الطاولة أو تلك
في عبوري • شيء قاس من حياتي بدأت به الكفاح بإصرار
منذ الطفولة ، يكفني عن الاقتراب من لحظة النعاس
الأمولة • المعاناة ، هنا ، تصاعد • تصرخ بهذا ، وذاك
وذاك • الوجوه الشقية شاة تعكس أشكالنا ونحن نحدث
فيها •• نضيء فينا الكشف •

تقاطعي وهي توسع من دائرة عينها اليسرى :

— ماذا ترى في وجهي ، إذن ؟

أجيب على الفور :

— شيء مخيف !

تردف قائلة :

— بل نحن معا مخيفان • اليس كذلك ؟ •

واقطننا ضحكتين سريعتين •

تقول صديقتي :

— لا يعني أن أتمالك نفسي من أن أخبرك شيئاً عن

حياتي • أود أن أسالك ، أولاً : « هل جعت ؟ » •

لم يذهلني السؤال بعد أن خبرت جراتها ومعاناة الهم

الإنساني لديها •

— ببساطة ! • أجل ! • جعت ! • رأيت جائعين

وعاشرتهم • في أيام قارطة وصل بي الحال إلى أن أعيش

بوجبة واحدة • في الأميات التي يخرج فيها الفارحون

وأبناء العاذقين ، كثيراً ما كنت أقف أمام زجاج بائع

ماكولات شهية ، أرقب الناس الطاعمين بصرة وحقد

ثم ألق أقدامي في الظلام الدامس • • وأحلم في صفحات

الكتب • •

كنت أستحق البعثة الدراسية الداخلية أو الخارجية ،
لم أقل واحدة منها • سرقوها مني • واندفعت مع أمثالي
في المرات ..

رأيت جائعين ، شب عراة ، خفاة في الشتاء القارس ،
يهرعون تحت المطر ، يسابقون الطريق الطويل وسيارات
الاجرة المتهرئة في عتق قرى الجنوب لقضاء حاجاتهم ..
رأيت قمامات بشرية تحني وتفطس رؤوسها في حاويات
النمالة تبحث عن لقمة مهملة .. أأنا الذي رأى العذاب ..
صدقني ! • ماذا أقول لك ؟ أحيانا أسأل نفسي : وما
العائلة من ذلك ؟ ! •

— ما العائلة ! • تريد أن تقول : ماذا يعني سؤالني ؟
لكم يجب أن تثبت بالذاكرة • قبل أن تشرف على الموت
والفراغ والعدم الأبدي • أنا جمت أيضا • وأحاول أن
أشقى العصا على الجوع وعلى غيره •

عشت في أسرة من ثماني بنات ، فتحت عيني على مقعد
كرسي مثقوب الاطار في حضني ، تمسكه أُمِّي بيد وباليَدِ
الأخرى تلمني كيف أدخل عيدان القش في الثقوب لانسخ

سطحه القشي . كانت مهمة صعبة في البداية على الاصابع
الرفيعة ، لكنها قت بقوة الظروف . كانت جهود الاسرة
تنصب في جيب رب العمل ، تنشي بالسنة ونصاب بالهزل .
بقي أبي يهاجر في الاحياء الواطئة والقرى المنية . يبيع
أشياء ما يقوم به أود البائعين أو تكسو أجسادهم الجافة .
يعود أحيانا بعد غياب أيام عن دار لا فرضى الهرره أن تبغ
في زواياها ، حاملا متاعا رثا من عالم رث . ومع ذلك
استطعت مع أخت لي فقط أن تابع الدراسة من وفر بعض
أجرة الكراسي . أميت بعد أن حصلت على الشهادة
الثانوية موطقة تقاضى راتبا متواضعا في شركة كبيرة
مستغلة . ماهمتي المادية أوقعت جزءا يسيرا من انتشار
الرمولة في بيتنا ، لكن ما تزال المافاة بين أشلائنا وكوة
الشمس في الجدار بعيدة . . أبقى زمن لمطلع الشمس ١٢ . .
أبقى ١٩٠٠٠

شيء من تموجات التنب والنشيج بدأت توقعه
الافاس . أشفقت عليها من الاسترسال في الكآبة والحزن
والقحط . أقاطعها قائلا :

ـ فجان التهمة بردا

رماد السجارة ارتى في فحة ففذيها شب الملاصقين
مع توهج البعير . خافت الحرق . تقف . تخرج عن
الطاولة قليلا وهي تنفض الذرات ، ألاحظ على الفور طول
قامتها وبرز ما اكتر من أسفلها على الرغم من تحول
صدرها وصغر اندائها . الوجه جميل أو كان جميلا يابى
الذبول ، فيه تأثير يدفعني الى أن أحيه بين ذراعي وأسد
شعره ، فيه شموخ تقدره لا يسهل انكساره ، ومحة
رحلة خائبة لغواص يبحث على الرغم من أسماك القرش،
عن لآلى خائفة .

.. « أبقى زمن لمطلع الشمس ؟ ! » آية كلماتك
أبتها المتألقة بوهج السر ..

برقت الدنيا فاخترلت العتمة . ضجّ المطر . تنادت
زمامير غائصة في الوحل . في الخارج يثفخ في صور
القيامة .

كثير من الهابطين من طرقات المدن الفلية تنبها ..

ثمة احساس جمعي بأن شيئاً ما سوف يعرفهم كلهم مرة واحدة . وأنهم وسط بحر أو دمار .

هذا الشعور متفرح من زمان في جماجمهم ، لكنه أشد شراسة الآن .

تقول صديقتي بعد أن أخذت نصاعيقاً رفع نهدتها بتوثب الى فوق وأجرى الدم في شفتيها :

— على الرغم من أن الحياة ضيقة في المقاهي ، إلا أن ما ينكشف من أحاسينا أكثر اتساعاً من الخارج ... خاصة في مثل هذه الاستراحة .

— هذا صحيح ! .

أؤمن على ما قالت ، في الوقت الذي وصلت الى أسعدي أغنية حزينة ، مكان نبوعها مخفف ، وإن كان المرء يشبه به هنا أو هناك من حوله . لكنها خفقان الصدور المنكفة وراء الطاولات ، لكنها تفاريس الألم في هذه الجريدة المسائية اليومية الصادرة عن هذه الاستراحة ..

إنسان الدروب المتعرجة لم ينصف بعد في الأزمنة العريضة ..

الصوت يتدفق في غفوة الليل المهيمن ..

أي شيء دفن يلبه القبلة ويريه في الغفوة !

ثمة رجل في العقد الرابع من عمره في الطاولة المقابلة
يكرع الشاي الاسود ، ويشعل لقافة من أخرى ، يحدق
في الكأس كأنه يرى شيئاً يتحرك فيه . عندما اطال
التفكير في تفاصيل يملكها وحده ، شعرت أن العالم كله
يسير نحو الشيخوخة ..

أنا ظلمي ..

أهلت صديقتي ..

النور قوي ، جلدها الناعمة الرقيقة السمراء لا تمنع
نبض العروق ، أعقاب السجائر في المنفضة كثيرة . أصابعها
العنية معدودة ، واحدة منها تحرك الرماد .

أسفل بفتة ، أسفل مرات بشلة متواترة حتى سخرت
من قسي . لدي رغبة في أن تطبق أصابعي على أصابعها ،
صديقتي تمنع دفناً . الأغنية العزينة أكلت ذاتها . يحل
الآن حضور لصوت مذبذب يرتفع الى مداه برهة ، ثم
ينخفض . سددنا النظر الى صوب المرحاض حيث مصدر

الصوت . واحد ارتدى على كرسي متقلب قليلا الى الخلف
مستندا الى الجدار ، مدّ رجلين متفرجتين بطريقة غير لائقة
مهملة وهو يعبث بالمذياع قرب اذنه . الداخلون والخارجون
الى المرحاض متزعجون ومشمزون ، مسحون كعوجهم من
الاوراق والاوراق المرمية قبالة ، ينظرون اليه شزرا ثم
يصلونه ، بين الحين والآخر كان يصلح جلته باستجابة
ثلجية كلما تلقى تنبها أو توبيخا حارا ، لكنه يعود الى حاله
الاول منصتا الى المذياع ..

كان يبدو أن الهواء حوله سيك ، مكظوم ، ومشتعل
لكنه لا يبالي عندما تأمته حملتي أفكاره بسبه الى
ساحات من الجفاف والقرف والاكتئاب . اكتشفت أنني
أقف وأراقب ، وأنا أرسل بصري عبر الرؤوس والاحجام
الى هذا الرجل ، الذي يبرز كذبابة لاصقة بياب المرحاض .
أريد أن يفرغ فلسفته النظرية ، ببساطة ، في هذا
- الطرف ! - من الأرض أتكون حياته أو حياتنا قريبة
الى هنا الحد ! ..

أيمكن أن يستدير الانسان بمعزّه ، ولا يصح أن يبقى

أو يخادر أي شيء . هل تدخل طقس الارتقاء الى الأبد ..
أقرص الشمس والعتمة بياناً . عبث ! .. هذا عبث !
أحس نفثة في صدري . ترتجف حدقتي ، وأبصق في منديل
من الأسفل .. الى أين صارت صديقتي « هبة » اليد
ما تزال مندودة . المس أصابعها لمس مادة تتلاشى ببطء ..
الماس مبتلة بالعرق . والأعناق هبة تتوجع من الألم
والمطش ونشوة القبول والانخراط في الوقت الذي
يبذل الخلايا القاتنة .. لن تكوني وحيدة . أمامي أراك
مثل زهرة عباد الشمس . مثلك من يعرف قيمة الحب ،
لأنك جذر الحياة الذي يأبى الموت ..

الرغبة في تمزيق شيء ، تتحد مع صمت التواصل المتعرج
في عينيك . أية روعة التحام في هذا الجسد الذي يحصل
مثل فك القوة الهائجة الساخنة ! أضغط على الرسغين
وأحرك احتراق الشوق في الزغب المتشر على الجلد
الساخن .

هبوب أفعالها يضيه حومان نعو ضوء ، نعو

ذاكرة لا تموت • أقول لها بجرأة تستد عادة من مثل هذه اللحظة :

— أنا معجب بك وأرغب فيك •

كانت لهجتي مختقة ، لكن فيها صوت من يفضي اعترافا الى اننى لا تكلم أبدا من وراء شقوق الأبواب المغلقة ، ولن تغيد اغراءات العالم في أن ثنها أو تدفعها الى أمر لا تريده •

تجيب صديقتي بعق ولهفة :

— وألا أيضا •

شيء ما بدا يكبر في الصدر • يفتحنا منظر رجل يدخل من باب المقهى ، رجل متضطف بدا في فسحة الباب المضيئة أمام الظلمة السادرة كأنه وحش مفزوع • كان حافيا •

صرخت أعماقي : انه حاف •

ان جبالا من الجليد تلحرجت معه الى الداخل •
أعضاؤه المكشوفة الملوخة المقرورة تمتص على الفور آخر

نص دافىء في المقهى • لم ينتبه اليه احد اول الامر ..
ثم شرعت الوجوه تطارده • ثيابه مهترئة متشكلة من رقع
كثيرة ذات ألوان متعددة ، أما بنطلونه ففي جانب يكشف
عن فخذ مستلئ بالشر الاسود المريد الوسخ ، وفي جانب
ثان يفضح - عورته - كاملة ... كان وضعه صادما الى
درجة الارتجاف ومغادرة الكيان البشري الذات الى شيء
أشبه بجهم ..

بلدت العورة موحلة وهو يتحرك الى الخلف خوفاً
من خدم المقهى الذين هرعوا اليه مصعوقين ..

مقصود الجناح ، زائغ البصر مثل غياب الوجود
في معناه ، لكنه حاد مثل الظلام والأشواك ..

ارتضى من خضم الى خضم آخر مقبل نحوہ الآن •
لوحة كانت ظرائه ماسية متألقة ينقلها بين بوابة الغياب
والاحتفاء بـ داخل • الخارج المرعب يفرز أقدامه في الأرض
قلبلا • معلم المقهى يلاحظ التلكؤ عنده ، يركل الباب
الصغير الجانبي ، يمسق في طريقه على جار المرحاض الذي

كاد يتعثر به • كرشه يتقدمه وخطواته تقاوم شيئا غير
منظور • ياعد الخدم يديه ويصرخ بالمودة :

— اخرج !

المودة تلتفح بالقرف والفرابة والخرس والحضور
معا • من كان متيقظا يشرب من المنظر أمامه جرعة جرعة •
ينص بعضهم برتقه ويشيح برأسه ويكب على وجهه ،
بعضهم يعكس سخرة منه على نفسه وهو يطوي نطفة
كمود • المتضعف مع عورته يظهر مثل مارق أمام الصرخة
لكنه سرعان ما يطير مهيفا تلتفقه أشداق الماء والريح والنار
والعتمة •

بلوح معلم المقهى يده مخاطبا كأنه على حلبة :

— لقد هرب بجلده • هه • ليس تماما ! (يخرق ظهره
شظايا الخارج) •• لكن هذا أفضل !

صاحب المذيع لصق المرحاض يبصق وينفوس في
كرسيه المائل : ساهم وغير مبال مثل رهط غيره • النائمون
يتأبمون شخيرهم • والساهرون تجري بينهم ابتسامات لم
تعد تين ، أو يكث تحت رموشهم الاستياء ، يبدو أن

الأمر بينهم ، يقتلون قليلا ، ثم يجف نبع التائر في مجرى
تأكل السر في الانتظار ، والحذر ، والابتلاع ثم يتداعون
بأنهم في خطر النيان واعتياد الحال .

قال أحدهم : - كان عاريا ، متصلاً من البرد .
ثم حوى رأسه في جمع كفيه .

وضجاء ، طفا الرجل فوق العيون كرة أخرى كما لو
كان زورقا من خشب ، يقاوم تيارا جبارا في بحر هائج
انصرف الى حيث أبصر .

يمود المعلم أدراجه صالحا :

- امكوه !- اضربوه ! خلصونا من رائحته الكريهة .

ضربات تهرس اقعه . يحني رأسه ويخاتل .. وجهة
عظمي تكسوه خطوط هائلة من الاعصاب والتزف . أما ما
تحت العينين فيندو اتساعا لهما . هاهوذا ينقلب الى الخلف
يد تستد الى الأرض وأخرى تصد الاجلاف . وقبل أن
يلقى على الأرض ، رفس المعلم على خاصرته ، فاستوى
مثل ماق شجرة عجفاء وهو يلفظ . ثم راحت الارجل تدخرجه
الى النياهب وهو يتأوه .

معلم المصطفى ينفذ يديه :

— حذرت مراراً • الكلب ! •

يقول خادم :

— الأحق ! • حتى وهو يضرب أصرّ على البقاء،

باتماتة • يا للعين ! •

يقول آخر :

— عرفنا كيف تؤدبه • نال الجزاء •

ينسحب العلم :

— كل شيء فيه شيم يقطع الرزق •

أثناء طريقه الى داخل الحاجز الخشبي صرخ في وجه

رجل المذبايع مجاور المرحاض •

— بقي دورك ، اللعنة عليكم جميعا •

يركله عدة ركلات يريد أن يجعله يثور :

— من أنت يا هذا ! • بحق الاله اغرب عن وجهي •

ابحث عن مكان آخر قبل أن تقع جريمة •

يتجمع رجل المذباح لا ينس . كان قد وضع بعض
أوراق التظيف الملتقطة من قممات الجوار والمستعملة مرات
عديدة في صحن جاث قربه مثل قبر .

قليل من الذين يفرغون أوساخهم ، يرمي قطعة صغيرة من
النقود . أحيانا يتحصنون الرجل ، وغالبا يملون الورق
والقائم عليه .

يقول صوت :

— الرجل عتيق هنا .

يردد صوت آخر :

— ماذا يريد منه ؟ ماذا يريد منه ؟ . فليتركه
وشاءا .

يعيب صوت بثاقل :

— هيه ! . العمولة ! . أنيت !

لكان معلم المتهى يسمع ما يقال . يمسك بالصحن ، يقلبه
رأسا على عقب . ثم يقذفه به مزجرا ، يدور ، ويترك له
في الهواء بصمات صجرة المترهل .

لم يابه رجل المذيع كثيراً . عدل من انكاشه ،
ما ان يترك باب الحاجز الخشبي ، حتى راح يفتش جهوه
عن (قطع النقود المعدنية) الفاتحة مثل عمره .

ظهر أنه أعرج .

اتبها لأضنا بعد الذي جرى أمامنا . لعنا ابتلعنا
كميات كبيرة من الريق المزوج بهواء الاغاس والاصوات
والدخان . الدليل هذا البضاف وتلك المرارة :

أعرف أن رفيقتي تنفس بصعوبة ولهاهاها مصلووبة ،
تضبط على اسانها مرتبضة . اليدان باليدين ماتزالان .
لكان اللحظة المفتوحة التي رفعنا غطاءها بحواس متوهجة .
وهوض دم جديد توقفت للحظة أمام مشهد ما مرّ .

عندما اتبها لأضنا ، وتابع كل منا الخيط الذي يربط
ما بين العينين واليدين ، شعرنا أننا قطعنا أشواطاً ، وأن
الضوء في دواخلنا وحوالينا باهر فاقم .

عصرنا أيدينا أكثر ، كان الواحد منا ينسج فقدان
الآخر . كانت المضاعفات النفسية قد عملت عملها في البناء
الداخلي ، والاشارات المرهقة نقت الروح والعقل ..

أي عيش وبني ينمش بتلك الاثياب ! ..
وجدتني أقول لصديقتي :

— انانیا ! . هذا خطأ . هذه بشاعة لا تغتفر ! .

تتفض .. تعترض عيناها قولي مثلما تواجه الدود
سيول المطر الهاطل بفتة وتقول :

— انانیا ! . هذا عزاء مخجل . يعني أن نفعل
عيونا ونصت .

هل تحتل وجودك هنا وذاك المطرود في الخارج .
هل تصبر ! ! ..

هذا البناء يقينا العواصف والبرد الشديد ، وربما
الموت الذي لا يعني شيئا مقابلا للحياة لدينا ، لكن في كل
لحظة تمر بنا ، يحطم فينا شيئا جديدا اضافيا ، مما نحرص
على أن نحفظ به سالما ..

ما عدت أطيع الحياة مثلما هي ! .

هلم بنا !

صديقتي تحب يلها . معطفها الجلدي يجد مكانه

على جدها المتفر بملأه غيفة متواصلة مع لهجتها
العقلىة القاطمة .. وتستعد ..

اقول بصوت نازل يتسح على صدرها اللاهث
وشعرها غير المتريح وخذودها التي ترك البرد عليها
مقاوات :

— لا أدري ! • هل أعود لأقول : ما الفائدة ؟ ماذا
نربح بفروجنا الآن ؟ ماذا يربح المطرود ؟ لعله الجنون
بعينه • أم ماذا ؟ ..

هتز صديقتي وتبادر الى القول بصوت يضرم ويرتفع:
— جنون ! ؟ • أتقول : هذا جنون ! • وهل ماتشده
امامك هنا ينبيء عن العقل ؟! ..

• مرفوضون كلهم مرفوضون •

هذا الذي يفوس في المرحاض والروث • وذاك الذي
يفني حزينا حيا • هذا الذي يطلق على الآلام • وذاك
الذي لا يمه خراب العالم الذي يتدىء به عادة • هذا
النائم وذاك المنتظر تحت سقف يئس لهما الحياة الحقيقية
في الخارج فيألفان الاحتماء وكأنه أبدي ..

لقد اعتدنا الاحتماء بهذا النسيء أو ذاك ونحن نتجرف
بوضعنا الى الهاوية فاي عيش هذا عاقل ياتمن الانسحاق
في القذارات .

ما أحس به الليلة يصيني باحباط نفسي شديد قد لا
اشفى منه أبدا . لا بد أن تضع دروبنا بعيدا عن أي تأثير
محبط . ان مواجهة الخارج ، يعني مواجهة حقيقتنا نفسي
الواقع ، المضاعفات تعجز الحياة فينا وندفع الى أن نصنعها
لنا في استعداد متفاقم دائم ، ونقطة صاخبة ..

التيار قوي يا صديقي . لكن علينا أن نقاومه ! ..

الشاهدة الرائعة ترخي لي حبل الاجابة . لا تريد
المساومة بالكلام . تهز بفعورية وسرعة . تجمع شتاتها .
وبتلاها فراعها الممدود عبر اللحظة المفتوحة التي اخاف
اندادها ..

يجثم كل منا في الآخر متلهفا . تلمس عيناى مفسزى
عيناها تلمس الحب والجوى والتفهم ! .

أبادر الى القول :

— أنا معك •

أبي اليد التي تستهويني • أحمل كبي ومحفظتي •
أرض خصرها جيدا وهي تداعب أصابعي بحرارة واندغام
نلقي بأهنا أمام العيون الوجلة الهالكة بالصمت والانتظار
نخرج من الباب الذي يخفي التلطم • تصرخ هي وأصرخ
أنا في وجه النوء الخائن الرديء •



قبل الحلم

.. أجل لم يعد يعني مكان في هذا العالم . صرت
أفتقد لذة إطباقه الجفن . بغير توجس . لربما الى الأبد .
لا يعني على الإطلاق ، أنا الفتاة المتعلمة ما قالته المفردات
والعلاقات عن الحياة والموت ، لكن شيئاً أعرفه تماماً ،
هو أنني ما عدت أذوق طعم النوم أو الاستقرار . ثمة
شيء ترب إليه التسخن في داخلي ، ويلي تعباً يشد على
عنقي .. يعوي مع الموت والوادي في شقوق النوافذ
المغلقة ، حطقي بجف وأنا في فراشي شبه جثة مخنوقة مشدودة
العصب والحواس ، زائفة البصر في لجة هالة النواصة
الحمراء ، ينما الاجساد من حولي تشخر وتزفر .. كأن
شيئاً لم يكن ! .. كأن قراءة الدنيا لم تبدل في حياتهم !
ليست « عادة » .. التي عرفت ، صدقني ! .. لم أجن
بعد . لكن قد أكون في طريقي الى الجنون . بعضهم لايني
— يوبخني لقلة عقلي .. ماذا أقول ؟ ! .. شيء عجيب حقاً .

كنت عندما أرجع من - الوظيفة - والدنيا حرة ،
أظل أرقب باب غرفة أبي المطلق في وجه صخب الاطفال .
إبدا كانت ابتسامته معلقة على الباب . تسع كلما تراني ،
متسللة ، في نيتي أن أقص فرصة خروجه حتى أستلم
نوم هادي . الآن ، أشهد سقوط الابتسامة مثل ثمرة
ذابلة عند الباب المطلق ، من بعيد .. تلمس أذناي في
الغرفة حركه ، ضحكه الرناثة وهي تعيد الى بناته الثقة
بالحياة والامل .. والحب . البارحة نيت تقبي داخلة
الى غرفته لاحضر شيئاً . فجأة حوصرت تماماً بالجدران .
استمرت الارض تنطلق من تحتي وصوت انهدامات
حجرية في رأسي . أبي بلحمه ودمه استوى بشراً سورياً
ضاحكاً مني ومن خوفي يمدّ منافذ الباب .. عاف قبره
بسرعة .. زحف داخل مسام التربة .. وفاجاني ، انظر
الى وجهي جيداً ! .. هل لون الحياة أو الموت فيه ؟ .

من مدة زارنا أقرباء من بلد مجاور ، وحلوا ضيوفاً ،
كل سنة يأتون .. ثمرات الفرح تشتعل آتتذ في البيت
كله ، تحرك جدرانه وعتباته ، فرشته وشرفاته .. متبادلة
الأمكنة والعكايات والسهرات والاحلام ، كنا نهر حتى

الفجر ، وهو يجلس على أريكة يرعى لبنا وهذيانا ثم
يتيم .. يعتني قهوته ويتيم .. تحضر وجتاي ،
ويتيم . كان يدرك أنني أفهم ، ويلقي بعينه ساطلة
أبوية رائعة في مثل تلك الأمور . كان حيا كما حوله ..
ومنذ أيام فقط ، استيقظ باكرا .. أخذ يزرع أرجاء البيت
ضاغطة يده على صدره .. أمي صرعتها المفاجأة .. سالت
لهيفة : « مم تشكو ؟ » أجابها : « صدري ضيق . وأنا
ببيل الاختناق . » عندئذ لم نتطعم أمي الاحتمال .
أيقظتني بصوت مجوح باك . أنا الكبيرة كما تعلم ، وأخي
غص ، والضيوف ...

أشرت إليه أن أخرج الى الشرفة ريثما اتصل بطبيب .
تهالك على الكرسي منحني الى أمام ، كأنه يضع قلبه على
راحته .. الكرسي تفه الذي احتواه في الأماشي
الحلوة ..

لما رجعت بدأت عيائه تزوغان . يكلح ما حولهما
ويفور . وجهه مصعوق . وبحاجيه الكثيفين اللذين
وخطهما الشيب عقد على الألام . أصابني فزع ذاهل راح ينحسب

على جبينه أيضا .. ارتفاع الضيوف .. وهبطنا به الدرج
الى السيارة المنتظرة . اثناء ذلك وضعت يدي على قلبه . كان
يفتلج تحت جلده في ملامة عذبة مثل شيء مذبوح .
وفي بوابة العمارة بدا أنه يود أن يعزق قيصه . لا أرجو
لك أن تجرب معاينة انسان يعلم للعالم أنه ميت لا محالة !
وعندما ودعت السيارة بعد أن أمرت الضيف على بقائي الى
جانب أمي ، ولاحظ انهيارى ، كان الدرج ، وأنا أطلع ،
يبدو أمامي كالجبل . ثمة شيء لجم جدي ، مرات ، في
صعوده . شعرت حقا بأن المكان غريب .. الجدران مائلة ،
وثمة بقع دم تكبر أنى تلفت ، اقتربت من الباب وهو فاجر
الاشداق ، شيء منفي من التخطي . كألني أخط رجلبي ،
وقد تهت في الفراغ ، في عالم آخر . استندت رأسي على
الاطار ، ضغطه على الخشب كأننا أسمى الى تفجير ..
وتشيج أمي من الداخل المظلم المنزوي .. يرتطم بصدغي
كأمواج ساحل ملعون مهجور .

المت تعرف كم كنت شديدة التعلق بوالدي . أيضا ،
هنا المجتمع الذي تعيش فيه ، لا يعدل في المعاملة بين البنت
والابن . كنت أطل بأبي على الخارج دون خوف : نهر .

نزور ، تحدث ، نخطط ، ندخل في حوار ساخن حول
بعض الامور .. يد أن ابتسامته ظلت تلتقي أبداً حدود
الفهم ، والاحباط .. باعثة فيء أشياء من النشوة والحب
وحلم الآتي . وجوده في البيت كان يكفل لي العدل . منذ
موته وشيء في الخارج غدا في نظري متواطئاً ضدي ، في
الداخل أنا قاحلة . أنتظر شيئاً آخر كالموت ، ما أنا في
الزمن ! . من لحظة الى لحظة ، يمكن أن يحدث شيء ما
ضدي ، أن يبدل شيئاً .

هو ذا أبي لم تفض ساعة فقط على فراقه ، حتى
جاء .. زائراً ميتاً .. هذه المرة ، محمولاً .. الى الوداع .
من وقتها بكت الساعات تشدها الساعات في فراغ الزمن
وعبته . سكنت الألم والعزبة . ما عدت أدري ما يجري
حولي . ثمة عمر ليس له مكان تدخل فيه إثر فقد عزيز
لك ، ولا زمان . تبدو مطلقاً تفرغ الثواني . تبدو مقطعة
اختصرت الماضي والحاضر ، ثم لا ترغب في التحرك هلعاً
من المستقبل . لم يأت بيالي يوماً أنني قد أدخل تجربة
فقدان أحدٍ من أسرتي : أبي . علي أن اعتاد التعامل مع

الاشياء والناس على الها راحة فجأة .. ومع قسي من
خلال اختفائي الى الأبد في أية لحظة ..

— ٢ —

.. كان عليه أن يعيد إليها شيئا ما :

هو : أنت سوداوية . ماذا حلّ بك .

هي : ليكن ! . شيء لا يصدق ، أن يضيع إنسان الى
غير رجعة أبدا ، بالباطة ، التي كنت تراه فيها على
أله باق الى الأبد .

هو : من المهم أيضا في وجودنا ، أن نركن الى شيء ما
في أنفسنا يهنا الاستمرار .. أحيانا ليوم واحد .
هي : كيف .

هو : ثمة أشياء من حولنا تبث كل يوم تجعلنا سعداء
في هذا العالم .. بأننا ما زلنا نحيا ، تقاوم معنى رحيلنا
المعاجي ، ونستليء بالحب ، علينا أن نخطط على نحو دائم،
وهذا قدرا ، صورة الانسان الآخر ..

— ٣ —

هي : ربما لا أدري . هذت افكاري تلك الى أعماقي
فجأة . لا أعلم كيف تستجيب بعد هذا الليل الذي
قبع في نفسي اللحظة .. اتركني الى رغبتني في أن
أدخل كل أبواب الماضي فقط .

هو : لكن .

هي : لا أدري . أرجوك ، لا تقل شيئاً يعني العزاء .

— ٢ —

لم يقل شيئاً . بلع ريقه . حاول أن يهرب من عينيها
السوداوين الواسعتين حيث وجد الحزن كموفه الرمادي
المجمر ، وقبل أن تضر وجهها براحتها ، راح ينش هو
الآخر : شيئاً مشابهاً دفيناً . وهجس في نفسه : « كم يبدو
لي هذا الماضي حطاً ! » .

★ ★ ★

— ١٣ —

الحاست

حلّ ، مركز الشرطة الرئيسي في قلب المدينة ، نشاط مفاجيء بارز . منذ ساعات الصباح الباكر ، والعيون تسقط عليه لتتأع ، جاحظة بؤال كظيم تتوجس ملاحظات وإجراءات متمتة قافية طالما جرت من قبل في أحوال مشابهة ، حتى لو لم يعرف الناس ، في أحيان كثيرة ، أسبابها ونتائجها . لا عجب ، إذن ، أن يبدو المركز للعيون متغيا متبذأ مرتفعاً بدرجات عديدة في وسط الشارع الاول في المدينة ، مثل داء قديم يكبر ويتسع وينثر بما يتضائق عليه من مرافق ومظاهر . الشوارع المجاورة في الجهات الاربع ترصد ، الآن ، مجريات صارمة ...

حركات ترقب الناس من بعيد كأنما هي ذبذبة لهايات ذبل تنين اسطوري يشحب إحساسه بما قد يتلمسه بقوة ووضوح عنقه ، ورأسه في المقدمة . وابل من طلقات قارية .

المدسات توهج تحت اشعة الشمس في الفبضات
والاجناب .

ها هي ذي أربع حافلات عسكرية من الجيش والشرطة
تجيم عجلاهما أمام المركز ، فتحك الأرض تاركة خطوطاً
سوداء مبتورة في جير المرور ، تحوطها أدخنة سوداء كريهة .
صراخات أوامر مشددة ، جعلت البذلات الرسمية تنزلق
بعنف ، وتري تبقع جو المكان محتلة مواقعها في
انضباط على طول شريط الشارع من الجانبين .. وعلى
منافذ الطرق والمعارض .. هيئات برؤوس مدنية تنقب عن
شيء مفقود بالبنادق والاتقاس المتلاحقة وهي تعاقر
الانتظار . ثمة من يشط المنطقة شبرا فشبرا بدءاً من
المركز جنوبا وشرقا غربا وشمالا . ضباط بمراتب عسكرية
سلطاية عالية تربض على عتبة المركز في الخارج ، تسح
المكان بعيون ضارية ، تدخل وتخرج في مدار مابيله الى
التنفيذ . أحدهم يخبر آخر في صهيل متقطع :

— « لا يمكنه أن يتعد كثيرا » .

الآخر تقمصه روح قاض وهو يرفع قبعة يده ويسبح
المرق عن جبينه بالثألية ، قائلاً :

— « بالتأكيد . المنطقة موصدة » .

أردف الأول بسط شفاهه :

— « الخوف ، كل الخوف من أن يحجزه أحد في مكان ناء . أو يحبه أحد دون أن يعرفه . وقد يعتدي عليه أئيم ا » .

— « صورته في طريقها الى الشر ، هذا الصباح : في كل صحف العاصمة » .

— « من يدري ا . لعله ، ضجاة ، يظهر أمامنا . لقد افترقه سمو الأمير وهو في زيارة : « عامل المدينة » في بناية — العمالة — هناك ا . وهي — كما ترى — قريبة جداً من مركز الشرطة ..

المهم نرجو أنه غادر على هواء ، دون حجاب مؤامرة الاختطاف أو أساليب التشنج والتعدي والتذكير والتحذير من هؤلاء العامة السوقة

— « دعك من هذا . ذهبت بعيداً . قيل : إنه — مزاجي — . قد يغيب ساعات عن عيون القصر العامر ، لكنه لم يحدث مطلقاً أن غاب عنه يوماً كاملاً . مزاجه في

أن يستحق من حوله في قوة شاعرهم تجاهه .. وفي أثر
حضوره بعد فترة غيابه تلك ثقة إحساس جامع بذاته
يطلي عليه اختبار اهتبه ومكانه على طريقته بين حين
 وآخر .. يدخل في طور غرب .. يدفع كل عائلة السلطان
 المنعم الى ترضي خواطره .. جلالة نفسه يباشر ذلك ..
 يهذونه بأعذب الكلام .. يتقون حوله الى أن يطنن .
 سمو الأمير متعلق به أعظم التعلق . قصص كثيرة ملوطة
 تعلقت عن هذا التعلق . انه ، شاغل الجميع بتصرفه
 وذكائه وسره . ثقة اعتقاد بأنه ، تعويذه ، تمتلك قوة خير
 وبركة . وهم يعرضون منذ سنوات الا يصيبه سوء ..
 تصور الفجعة وهو مخفف منذ يومين ! » .

— هم الجناة ! . أجل ! فعلها الملائع . يريد الاشقياء
 أن يذلوا عامل المدينة ويذلوا ويسحبوا ثقة الأمير منه .
 تصفية حساب قديم قائم ، معنا ومع — العامل .

— « مع الأمير ومع حراسه الأخمين » .

— « أجل ! هو من حراسه الأمناء لا يكاد يفارق
 سموه لحظة واحدة ، كما أن الأمير لا تسمده الا صحبه

الميمونة . يا لعزته ! ، سمعوه ينذر بشر مستطير واقع
لا محالة ، اذا لم نجد له . . . » .

— « الوقت يمر بسرعة (يقاطعه) يجب أن نجد قبل
حلول الظلام . . والا نزلت علينا الكارثة » .

أخذت عبارات الضابط الأخيرة بحة . . أعماه المتوترة
سلبت صوته النحاسي بعض رتته . يتابع في همس خشن :
« لا بد أن فعل شيئا . . لا بد ! . . » .

وربما نازل درجات المركز ، ورسب صبا في عجاج
الشارع محاطا بمعاونيه وبالجنود . زميله الاول مكث
يتأمله قليلا ، يهز رأسه ، ثم يتحول الى داخل المركز .

سيارات المسؤولين تصد أبوابها بمصيبة وقسوة .
يصعدون الدرجات بوجوه مقطبة شوه العيوس بعض
ملاحظتها ، في حين كافحت بصبر حتى تبسم القدرة والغلبة
على القساة . مجسوعات بشرية تحتجز هنا وهناك على
طول الشارع وفروعه . بعض الافراد يساقون بوحشية
الى داخل المركز . . .

« محقق » متلىء الوجه بوخزات التلقيح السلطاني
يسأل فقيراً من الذين يتقاطرون على أقدام عارية من القرى
الراحلة الى المدينة :

— « ألم تره ؟ »

— « لا والله ! » . يحلف الفقير .

— « كيف ! ومثلك حريص على أن يتأثر بأي شيء ..
ويملك حراساً خارقة في طلب الاخبار والوسائل التي
تكفي مؤونة طوطة يعود بها الى « البلاد » . أنت ممن
هؤلاء الغلة القوضيين المناضلين ! ، هه ! ، هه ! أم
سفروك لحسابهم أيها النقي الفقير القذر ؟ » .

يثور المحقق ضجاء ، ينهض ، يثب نحو الفلاح ، يلكه
على وجهه وعيونه تقطر سحماً . ترجرج الفلاح في حين
يجمع المحقق رأسه بين يديه ثم يرفعه يقبض على تلايبه
الممزقة صارخاً : إذن ! قل لي من أين لك كل هذا المال ..
قل أيها الوغد ! .. ثم يلمسه مبتعداً عنه وهو ينفض يديه
في قرف ...

— بعث دابتي ! • انها أموالى ! • برى • أنا برى • •
يقول الفلاح جملته « أنا برى » بعد أن أمسك
بصعوبة أنفاسه المتلاحقة •

كبرياء الأرض في جبك ، حملت دموعاً الى عيب
وحبستها في آن • يقرب المحقق منه في ملاينة خبيثة لئيمة :
— « لنعقد صفقة ! • بإمكانك أن تعقد صفقة معنا •
ما رأيك ؟ » •

« كيف ا » •

— « دلنا عليه ! أين هو ؟ • لا بد أنك ترغب في أن
نرحلك ، حناً • سيكون لك ذلك مع مال وفير وما
شئت من عطاءات أخرى • فقط قل لنا الحقيقة ! • • أين
هو ا • • • » •

— « أقسم لك انني لم أره حتى في الصور • ولا
يهمني أمره ا • • » •

— « تجرؤ على التصريح بذلك يا شقي ! • • » •

« بإذن سيدي • • قصدي لا أملك الحق حتى
بالحديث عنه • »

إنه يخنس الخصومين .. أو تخصونه اتم .. لا أدري !
— « ماذا » ! .. —

تتفخ رثة المحقق حنقا وهو ينصب إلى كلام الفلاح البطن
بريرة بيئة .. تثير حفيظته قدرة أمثال هذا الرضي على
المراوغة . وملكاتهم التلقائية على صناعة إشارات المعاني
المنكرة المورثة إلى الاستهجان والمقاومة والثورة أكثر
منها دلالات الخضوع والتوسل .
يطلب المحقق إرساله فورا الى التعذيب ، ليبدأ مع
آخر ...

— ٣ —

أثناء الهرج والمرج .. لفت أنظار الخلق في الشارع ،
واحد . يركض بقوة هاربا ، تكون اعتقاد سريع بأنه هو
ضالهم المشوذة التي يملئ عليها مزاجها معاكستهم .
غفل مترا خلف الحشود التي لم تدطن له بعد . نشد
متهربا من سيارات الشرطة والجيش . خاتل الأقطار
ببراعة لكن دون جدوى . إنها تتجه صوبه . أصابه ذهل
وما يشبه الجنون من تيقظ كل شيء عليه بصورة صادمة لم

— ٥٢ —

تقبله أو تهله لحظة واحدة ، منذ وجد نفسه خارجاً من
منعرج هادىء الى فحة حديقة شارع القيامة هذا .
سياح من كل الناحي انحدر على رأسه ، خطه بحروف
ملهوفة :

« إنه هو — لا بد أنه هو .. إنه يحاول الإفلات ! »

كان كل جندي أو شرطي يومي الى أن يحظى بشرف
القبض عليه . ضابط ربض على مافة غير بعيدة منه ،
رفع ذراعيه يصد بعض الاندفاع وهو يعلمهم على
اللفظ والحذر .

« إياكم وأذيته ! » .

ضابط آخر به قائلاً :

— « لاتفعلوه ! لاتفعلوه ! »

بعض ضباط القيادة في المركز نزلت الى أسفل .

هبت عاصفة ترعجات بأصوات عالية من المحتجزين في
رحاب المركز ..

صياح وفتيات ومشردات وعاملات وشيوخ وكهول

من حقول تجارب العذاب والمعنة زائفة ابصارهم
صرخوا بالكباد متورمة:

« إنه هو ! » تلقوه وخلصونا ! » .

اصوات خفيفة متجهة خرجت من الأفواه مثل القيء
بين الأقدام المتشابكة :

— فلتذهبوا معي إلى الجحيم . لعناتنا عليكم . سمتم
انفاسنا هنا من أجل هذا ... من ظنونا ؟! .. أجابهم
شيخ يتقاوى بقيضته على عما بعد أن منعوه من اقتراش
الأرض يرسل كلمات برارة ونودة وسخرية :

قطاع طريق ملهم !

ثم ارتفعت الأقدام على الأصابع ، وتسابقت الأعناق
المتراصة للملاحقة ما يجري في الشارع ... مقمدين بأياديهم
على أكاف بعضهم بعضاً ...

— 1 —

الملاحقات تأخذ الآن شكل دائرة كبيرة تضيق

— 01 —

وتتقلص ببطء ، تحتوي في داخلها « ذاك » الذي لم تنفع استاتته في الإفلات ، فكن سكون الموج العاتي . هل استلم تماماً ؟ . أحد الضابطين المحذرين لم يخف انفعاله من شرف الإمساك به والحصول على مكافأة مجزية وثقة مدعومة مختبرة ، يخاطبهم بصوت مرتجف لكن متلالي :
يا للقاء ! . اهدؤوا قليلاً ! . لا تخذلوه في بذل المساعدة لكم . إنه لا يطيق هجيتكم . على مهل ! . على مهل ! .

(يتقدم الضابط وهو يثل ما يرغب به بحركات يبذل جهداً لإتقانها حتى لا تأتي مضحكة) أجل ! هكذا !
عروا وجوهكم بالبسر . . ابتسموا بخنان . . أتم على وشك أن تعانقوه . .

حوصر الآن تماماً . الوجوه المكبة ذات أسارير مبطنة وهي تتجه نحوه . الأيدي تدعوه للاحتضان لا للقتل . بعض السيارات العسكرية البعيدة أقبلت من انحاء عدة أهملت وهي تشع وتطحن الهواء . المحاصر بدا متهاكاً ، عاجزاً ، ناقماً ، يزيد هزلة من انتهاء حيلته .

عندما وصلوا إليه تقريباً ، كان الضابطان في المقدمة من
جهتين متقابلتين ، راحا يتحصانه قليلاً ، ينقلان نظرهم في
دقة بين وبين صورتين له في أيديهما . الجيع راحوا
يصدقون فيه واجبين . وقبل أن يعالجا تردددهما وظنونهما
بحجم الموقف بالقبض على المطلوب سما صوتاً هادراً
يخترق الحلقة البشرية وينبه الأذان الى احترامه ، ما جعل
كل واحد يضح له الطريق ، ينأ يقف الضابطان في
استعداد ووقار .. يقبل إليهما الآن ، يرد التحية ، يروح
على الفور يضبط عينه في ذلك المطلوب ..

أمامه .. وجه ضخم الفكين مائل الجبهة من تلك
الوجوه التي نلتقي بها عادة ، متشردة في الحوار
الفيقة ذات المجاري الخارجية .. أو في تلك الأحياء
القريبة من المدينة في الضواحي . أشقر لكن شقرته
باهتة . إهابه الخارجي أسف طول المير والتقل
المفروع . على ذقنه وحروف خديه توضعت بقايا من
غضب أحرقه حر الشمس ورمدته قوة العراء . يفتح فمه
اللحظة قليلاً فتكشف أسنان مثقوبة تزيد من غضب وغيظ

وجه « قائد الشرطة » المنتصب قبالة « زبد » المطلوب «
يعلو شغفه . صدره يعلو ويهبط . كأنه يحس بنسيء
عريب فجأة .. زمجرة داخلية تخرج منذرة تشي بتوقع
الخطر وتغلف سلوكاً غامضاً مقبلاً » على رعب « قائد
الشرطة » تأخذه رعدة . يخرج مدساً على طريقة
الأبطال . يتعد خطوة خطوتين . عينا « المطلوب » دامتاز
ليس من الخوف كما يبدو ، بل من الجوع والحسق
والحصار . فوهة مدس القائد مددة الى جمجمته تماماً .
اصبعه يضغط على الزناد . جدد المقدور يرتفع مافة
متر عن الأرض ، ثم يهوي مرتطاً بشدة يختلج غارقاً
بنوافير الدم من رأسه المهشم . يبدو أنه مات . لكنه
يتحرك فجأة فتوزع الحلقة أكثر . يصرخ القائد :

« أطلقوا النار ! »

تشبث الأصابع بالزنادات . تلمع الفوهات تحت
اشعة الشمس حيناً ينهر الرصاص :

د . . . د . . . د . . . د . . .

كل ملقة كانت تمزق شيئاً منه تبعثره يرمع به الهواء

بالوان قزح . تابعت الطلقات بالمرغم من أن « الكلب »
كان قد هدد من الطلقة الأولى ...

— ٥ —

سيارة « كاديلاك » فخة من طراز حديث ، فيها رجل
وزوجه ترفل في الدمىس والحرير ، توقعت عند شرطي
مرور على رميف شارع فرعي ، أثناء طريقها الى عبور
الشارع الرئيسي . في ذلك الوقت . كان يشير الشرطي
الى بعض السيارات لتأخذ دورها للتفتيش لدى زملاء له
آخرين من الحرس اللطاني والجيش وقوات الأمير
الخاصة والشرطة . يدققون النظر في كل شيء . يحشون
عن الكلب العارس الثين المقتود .

باحترام كبير اعتاد الشرطي كيف يشله إزاء تلك الأحجام
من السيارات ومن يستقلها من الأشخاص الذين تعميمهم
السلطة ويحونها — يشي مضلاً من نافذة السيارة .
يتظاهر بأدب جم بأنه يبحث عن شيء ، رأساً ابتسامة
من هو مجبر على القيام بواجبه ...

— ٥٨ —

« ماذا يجري هناك في الشارع ؟ » يال الرجل
المحترم في جدية وأتفة .

« الكلب يا سيدي . كلب سمو الأمير اختطف وهو
في زيارة « العامل » . يقول الشرطي . ثم يد على الرجل
والمرأة دهشة من البب الذي ساقه الشرطي تصيراً لكل
ما يجري ، بل على العكس ، فإن ملامعها أمنت على
المظاهر ، وأنبات عن التني الصادق للقضية .. لا تخفي
خطورته عيونها ..

« القضية مؤسفة » يعبر الشرطي عما يجول بخاطر
كل منهما .

« اللصوص ! .. » يرتفع صوت اثري .

« قبضنا على الكثيرين ممن يشبه في أمرهم من
الأحياء المجاورة . تحرينا كلاب المنطقة كلها . ضربنا
بعض الناس واحتجزنا آخرين في حديقة المركز ، وفي
أماكن أخرى . أدمغتهم ناشفة . إنها فضيحة أن يسرق
كلب سمو الأمير » يقول الشرطي في تأثر وحلق .

« يا .. يا لطيف عليهم » تقول الزوجة الجيلة بعد
ان انتهت في حرة وهي تبذل « التاء » ب « الطاء »

« إه كلب أمريكي جميل أنة كلب آخر من
هؤلاء الذين لا يسون شبه لنا منذ ساعة ، وغررنا
شعره المزفة ، فعلقنا رأسه في الحال . أما هو .. ياللعارس
البي المكين ! .. آه لو رأيت بإيديتي . لا بد أنك رأيت
سورته مرة .. انظري إليها الآن انظريها جيدا ! .. »

يقول الشرطي في حراسة . ينحث المرأة دافعا
بالصورة من جيب قميصه . تلتفتها بخان وجلال وهي
تلمع زوجها بعينين متلفتين للشاركة . يحدقان بها .
نصيح :

« آه .. يا .. ما اقسى تلك القلوب ! .. إنهم
لا يقدررون .. لا يشعرون .. » تصيح هي مرة أخرى .
التأثير واضح لا لبس فيه . تغرورق عيناها بالدموع .
وجها نضره براحتها متبذة زاوية اليارة . وقبل أن
تقع الصورة من يدها التي لم تصطلم إلا بالورود ، يادر
الزوج الى التقاط الصورة قائلا :

« ليس غريباً البتة أن تفعلوا كل هذا . مصاب
جليل . لكن بحضور الكلب الأميركي الجميل تحسن
الأحوال لا بد أن يسير كل شيء على ما يرام » .

« هذا صحيح يا سيدي . »

وقبل أن يكمل الشرطي جملة ، يدسّ الرجل الباذخ
في يده ورقة مالية كبيرة . فيلتفتها بحرارة وامتنان
وتطمين على أن « كل شيء يسير ، حتماً على ما يرام » .
يودعه باستعداد وتحية :

« مع السلامة ! مع السلامة يا سيدي » .
ينصرفان .

لكن اليازة ما إن وجدت نفسها في جلبه الشارع
الرئيسي ومطارداته التي تأخذ الآن صبغة الانتقام
والتشفي ، حتى يظهر لها الاطمئنان عيراً وغير واقعي .
ذمر زمر تساوج بعضها يصرخ ويرفض وتلقى الضربات
الموجعة . عيون الفقراء الرمداء ، هؤلاء الغارقين في بحيرات
الانتظار والغيار والمفاجآت والياب ، تحفر الزجاج
وتصل الى صميم اليازة ، يتلقى داخلها خيوط الأشعة
القاسية التي بدأت تنبث كالقيامه على سحنات الجوع المهلئين

والموقوفين على شكل الكداس تضغ الكرة وتتنفس وهي
محروسة بالبندق على طول الطريق . كاد يوقف السيارة،
يخرج منها مارخا في وجه كلاب الحراسة جيعا : « ماذا
تتظرون ! الا تعملون ما في صدورهم ، اقرأوا هذا
اللهب المرتفع في النفوس والحدقات ! » ماذا تتظرون !
اقتلوهم جيعا ، قبل أن يقتلوكم ! » يكاد يفقد السيطرة
على سيارته وهو يحاول تقيؤ مراقبة هؤلاء المكونين
بالضرر والشقاوة . ثقل كالجبال يحط على صدرها .
إن صفارات الجنود وحناجر الشرطة يتلعها ويطنى
عليها ، اللحظة ، نداء صامت وجيع واحد قائم في أعماق
هؤلاء المزهقين الجياع باتجاه التردد والسي الى أن
يكونوا طلقاء . شيء ما ، كالجحيم ، يطلع . لتكر
أعناقهم ! .. عيونهم بنادق . صدورهم بيانات . يحس
بالاختناق من هذا المكان . تزيد انيابة من السرعة .
لكأن حرة الأعصاب تلهب وقودها اشتعالا . رعب
جامع يحلها على الطيران .. لكن إشارة المرور الحمراء
في الأخير ، كانت قد أعلنت سد الطريق ، ذلك الذي
أرادته أن يبقى سالكا الى الأبد !

الاشتغال

القيم نار ، متفز . أجاد ، وفود ، وشباب أغنياء
تنضح بالقوة والقدرة على اللعب في عمارات وشوارع
لاتنسى . الا لهم . ما زالت الألوان الساخنة في المخادع
الهائجة وراء ستارات شفيفة يضاء مطرزة بالارجوان
تمطى في تلمظ أمام عيون المحمرة المبقعة بخيالات الجنس
المكتوم . قلبه يتدفأ برعدات . أنوان الأغنياء التي رآها
باشواقه ، ترسل به الى أحلام نعمة منكودة الجناح .

يحس بأنه شجرة ينخرها سوس ظاهر وباطن ..

خضرة عروقه تذوي مع الأيام .. تودي بها فؤوس
الناهين .

هذا النمر داخل كل منا ، كيف لم يذق رفرفته ،
طيرانه بعد ؟ ..



الطارات التي ساح فيها حيث التحم ، جذبه البشرى ،
مع شارات المطلوبين والمبصومين بالصغرة وشروط
الاضطلال والموت القريب ، تصحو بعنف في الذاكرة .
الطريق الرئيسي في المدينة يرتعش بالعب المزف والنوايا
المتعمية . أشجار الصنوبر على الناحيتين تلبس أضواء
الماء من الحوانيت المجاورة المثلثة التي لا يشتري منها
الا القادمون من أصلاب سائنة . المارة الفقراء العابرون
والعالمون يترحون عند طرف الشارع المظلم في حديقة
عامة مهلة .. بعضهم مزدحم في مقهى ثل ملتصق
بالحديقة .. وبعض آخر يحتشد في استمرار حول بائعي
(الكعك المسم) المرشوش بالماق بلون قلوبهم .
« صاحبه » جانبه تبه الى منظرهم فجأة ، لم ترق له
الرؤية . برم فيه . تكرار . أما هو فقد ابتسم لهم قلبه
وحيتهم شفتاه . يود لو يدفع عنهم القروش جميعا ! .
وعندما خلفهم وراهم ، كانت طاقة الحياة على وجوههم
المنوخة ، تنطج في نيون أصفر ، وقد امتصتها أماسي
حاراتهم الخائفة ... رايتهم ياكلون خبزا واحدا .. ظهروا
أمامي كأنهم يتركون شيئا مرا معافا في أفواههم .. فسي

عيون بعضهم اطلت قريتي المنية منذ ازمان ، كوباء ، كذعر ،
في التواريخ المدمرة ...

— ٢ —

صوت أغنية الفيلم التي ترددت بكثرة خلف مشاهد
الحب والظلم ، تفج بوضوح في جمجته : « أنت يا زوبعتي
أنت يا لهيبي الوحشي ! » واحدة من النوة المتهاديات
المتعطرات من ذوات الكنوز المتحركة ، ذكرته ببطلة الفيلم
المفاج التي تبدل ثيابها كما تلون تصاوير الرغبات ..
أين سير الآن ؟ .. جوعها يبقه .. تحك ، فجأة ثديها
المتحجر بفسه وتلوى بشبق .. فاكته التي حلم بها ترسب
في فمها .. صدى مثل العواء القديم المرتطم بالطرق
المدودة يخرج من مداخل متشعبة في أعماقه الى أعماقه ..
توقف .. تعجم عنه .. تظن الى صاحبه .. دائما
الشيء منه .. تحترقه بأصابها .. بوقاحة على مرأى منه ،
راحت تلتق .. وتنف بألسنها البيضاء الناصعة النصف
الاسفل من ذقن صاحبه الحمراء . تنفس على عمق .

التمريض

— ٦٥ —

انحلالات اشياء صغيرة متشابكة ذات لونيّات افعالية
تغذية اخذت تسلل الى ملكوت حرمانه .. لذة افيون
القيم تامت ، اتعت ، تبلورت في حكايات موشاة عن
المرأة والقراش .. ولبة الدخول في اكشاك الظلوظ ..
ثمة موائد ذات مجد تبسط امامه عليها خبز ايض طويل
امس مرصع بوقلة الجبر .. وطعام فاخر يتاسل من
ظهور فجائع هؤلاء الذين لا ياكلون غريض اللحم ..
يشم في رياض اللعطة ، عرق انقاذ النوان في امريكة ..
تعتقد أيضا في سحتة سجلات المطارة والقراغ والثرثرات
البرجوازية والنهم الى العافات السريعة والمعلكة في محطات
العالم المنجبة بالبورصة المبللة بندي هذيانات اماسي
العشق والجريمة .. « رياض السيد » حكاية حبور
للرغبات المستحيلة لغة دون لغة .. اذكر الفتيات الناضجات
القاصرات وغير القاصرات اللواتي غرر جن في غرفة كائها
استطالة ولها شيوخ القلا الانيقة العريقة ، تستدير حتى
تبدو كمن يدبر مؤخرته لامثاله من المفلولين . اذكر :
حضور السيارات للمروضات والمفروشات الثمينة
والامس المنجبة والاوراق التي لا تبت في فلول العطش

أذكر : الاضواء الملونة الخافتة تتناوب في اشتعالها وانطفائها
ضافية على اللعبة المزورة لبني جلده ، الصورة المقصودة
الملائكة .

أذكر : كل شيء وأذكر : قتلت الحلم مليون مرة ! .
اشتيت أن أملك غرفة نحلة .. ومثل طائر غرب مهدود
غامض انتظرت خلف الغيوم بوابة صحو .. زي التعب
والاضمحلال لم يرق لامرأة واحدة تقبل بي . عاش رياض
حياته دائما . يعيش هو أوهامه .. كل هؤلاء النساء له
وحده .. هذه الغادة الكاعب المتطفة .. وتلك المرأة
ذات الكفل . يقول العائد :

— أشعر بالوحدة والسأم .

مكنين . هيج الفيلم أشجانك مثلي ، لكن على
طريقتك . يضيف العائد :

— حمص مدينة مغلقة . انني لم أعد أكتفي أبدا .

يا للشكوى التي لا تسعها الأرض ! . انقلب الجو
عليك . مثلك لا يرضى اذا لم يضع في حبابه تحركات
الكواكب ، الشمس ، القمر ، الورد ، الشجر كل ما تعاق

الأبصار والأفئدة ، وما تحله موجات البشر الربة من
نبوءة البهجة . مكين ! . كان أبوه يرسل له ألفين ثلاثة ..
في الشهر .. لا أدري أنا متى بدأ حلمي العقيم في شراء
قيصر جديد مشجر مثل هذا ! . أو ساعة يد مثل تلك ! .
مثل هذا الشيء أو ذاك ! . اليوم قبل ساعات قلبت لسي
مجلد حفظ صورته في أمريكة . أشار الى واحدة عارية
الا من ورقة التوت بأصبه اناسية . كانت بضعة ..
احتواها في صدره .. علقها في الهواء على ذراعيه .. ساقها
على أمواب الشاطئ مرة .. وتسيا متجاذبين مزوجين
بالرغبة مرة ..

يقول الموسر :

— هنا ، لا يمكن أن تعيش حياتك ! .

كاذب أنت ومبتز ! . يشعر بكراهية شديدة تجاه هذه
الكتلة ذات العذاء اللامع .. لكأنه عقرب يمنع عليه الكلام
والحفور .. لكأنه جدار يعلو يته وين من تنهمر جسم
الشوارع بلا عناية . يعجب عنه بامتداده وصلده وجوها
نعيلة تتفض جراحهم في ظلال الأضواء تحت التجاعيد .

ها هي ذي تعطل قليلا حركة صالح . رجلاه النحيلتان
مسوكتان على الأرض . يلتفت اليه المتسامخ ويشمر أن
الخل ليس في وقع سيرهما فقط . لكان شيئا خفيا من
تسهما ينط ويقع مديبا بين أرجلهما معا . يلح كل منهما
الآخر في شزر . يحدث صالح نفسه في همس :

عشت حياتك دائما هنا أو هناك . كل شيء مرهون
بالك التليد . الفقراء وحدهم لا يملكون حياتهم .
يمشون ينكم ويتحركون مثل مخلوقات حقيرة . يعيون
مبقورة تراقبونا . تنكرنا عيونكم وننكركم . تحت مجهر
المحاسبة تقطوننا اذا ما استطنا قليلا أو كثيرا . القيم
باللهيب الى أعناقنا . لكم غلافكم . علمتونا أن نقول:
شيئان لا يابه هما احد : « رذالة الفني ، وموت
الفقير » ..

يا لها قصة مجتمع راح يعطي فئة متحركة بعياته كل
شيء تحت تأثير مسوغات طبقية مدعومة منذ فجر التاريخ .
فلتعشوا وحدكم ..

ليحترق العالم ..

هجعت على أمه فجأة رائحة عادم سيارة شاحنة ..
أسود لزج خثز ومختق .. ذكره بذلك العطن الذي
يتلبس رثيه حالما يدخل بوابة الحوش المهمل المشبع
بالرطوبة وغن الحشائش والتفايات حيث غرفة متقاوية في
بناء قديم مستهلك في حي « باب الدريب » في حمص .
ثمة حصير وبعض الادوات اللازمة ، أعمار متفاوتة فيها
أبوه أمه .. أخوته الصغار .. أخواته . بقيت الغرفة
تضيق وتضيق بهم ، حتى محت حلمه في أن يستقبل ذات
يوم كائنا اضافيا يعيش معه علاقة انسانية وعاطفية لا بد له
منها . مساحة نومه في النهاية ، حددت له على أرض الغرفة
بدراية وعدل . وحتى لو توفر له المسكن أو مكان ما، فمن
البن له أن يتزوج ، وهو لا يستغني عن ثمن لقافة اللحم
التي يقدمها له « رياض السيد » انصرف الان :

يلطف صوته :

- خذ ! -

لكاءه كلب جائع ترمى له قطعة لحم لا يستحقها .

يتساءل السيد في خبث :

— ما بك ساهم . بالقطع أنت جائع ! .

يفكر : « أي جوع هذا يشدني ورامه » .

تضع وجه « صالح » قطرة منحدره من الزهو . أما

أحداقه هو قضيا نبض حي مذبح على نطم الأيام المهدورة

بالحرمان .. نبض حرص « صالح » بكل قوته إلا يحس

به صاحبه هذه اللحظة .

يتلقى اللقافة منه . يجد أن تصيها يتطلعان وجوه

الزبائن من العال والموظفين الصغار والتلاميذ وبعض

صيان الدكاكين والفلاحين وبائعي اليانصيب العابرين ..

ثم ثلة قليلة من المنعمين تشير من خلف الزجاج وتأف

الدخول . أبناء التعب يلتمسون ، بصمت ، لقافات من

الطعام رخيصة . ثم يته صاحبه في كلامه :

— كيف تحمل أحشاء هؤلاء هذا الطعام اللعين ! ..

فجأة تكرر أيام صالح القارطة الى الوراء مثل بكرة ..

مرة اشترى له رياض الطفل الصغير في المدرسة تلك اللقائف

غالية السن .. التهم بعضها ، وأخفى الباقي لأقراة القرويين

حيث التجؤوا منه الى غرفة حقيرة عند قريب من قريتهم
يحبب عليهم حين حرمهم لظلم حتى من مدرسة متواضعة .
يستد ذاك الاحتراق لا يام أربعة لم يلق فيها التليذ الذي
يكبر طعاما بعد ان سافر الجميع الى القرية . فانهجوا عنه
وانعس عنهم . الثلج عطل المواصلات التي تجد الخيبة
انظر طويلا زوادة الاسبوعية من اسرة قروية متكاثرة ..
تبلت مقتلته قبل ان تصل أرغفة الخبز اليابس والجبنه
الملحة الجافة من براري الرثاء . اذكر : كرتها بالمطرقة ،
بللتها بالماء والدمع .. ذكرى لن اهبا للريح .. لن اجعلها
تشد على عنقي اللحظة .. لن أرثها في هذه الافواه الجائعة
المتجصة امامي .. لقتنا الحقيقية يرقها أوغاد الارض
الذين يهدون يقتصون فيها الزهرة او فرصة الجهر
بعض القرصنة . لن انسى نظرة ام هذا الثري ، وهي تأمر
الخادمة ان تقدم لي شيئا من الطعام كلما لمحتني على درج
باب العمارة الكبير .. او حين تستجلي حالي مثل غراب
يفترق قلبا .. مثل قطة جائعة منكفة على سقاء اللبن ، بينما
سيلها يتعجل سحبه من تحت مغالبها ، كيف استطاع امثالا
امتلاك ارادة المتابعة على التعلم .. الصبر على النار ..

الثلج بين جدران رطبة متداعية بلون الدمن .. على
الزمهرير الذي يعثر الهشيم والواح التلك التي تدفحة
باب الغرفة فنجد اجامنا المتجمعة فجأة في وجه اقاص
اماسي الصقيع والمرارة .. جاع الجائع وما يزال جائعا ..
في الوقت الذي لا يني فيه هذا الخفاش الصلاق مالكا ليلي
الطائف في فلك احبائي من اهل الطين - يحل السوط
علينا بعينه .. يوما الاحتقار وينفخ صدره .. يعلن
مثل قلعة مدعية الاندحار الابدني لاحلام التجاوز .. اكل
شيء على حاله ؟ ! .. الم تدر الأرض بعد ؟ ! . ايجد
حقيقة قائمة ؟ .. هل تضع الاماني الجامعة في مطاف
شارع المغبولين ؟ ! .. اتضيق اللافتة يوما بعد يوم ؟ ! ..
اتعود قبيلة الصارفة ؟ ! .. أبقى هذا اللعين يسمى
ويطهو ؟ ! . جاع الجائع وما يزال جائعا .. اللعة ! ...

كان ما يزال يسك باللغة بمصية وحنق .. اكتف
لوهلة انه يعلق على وجه « صاحبه » شيمة بعيون ناربية
من وقت أن سخر هذا المركوز أمامه من أحشاء الكادحين .
يبدو كل منهما على وشك أن يبادر بكلمة أو فعل ما يهنيه
ألا يخرج به من نطاق شعور ضاغط أو حبس آلام مكبوتة .

نجاة : يقذف صالح باللفافة على طاولة قريبة منه ..
يضيق .. يعض اليد بقلته .. تهزه ربيع غامضة عاتية
مثل غصن قوي .. وجهه ينز بائل أسود .. بعض الافواه
هنا وهناك توقفت عن الحركة .. ثمة أمور مريبة تحصل
على السؤال .. لكأفها عبوتا بارود تنظران الشرارة ..
يتلع اليد الرق المتبقي في الحلق .. يقبل الاهاتة كمن
وجدما حلا منابا أو مفضلا في الوقت الراهن . يصطنع
اللابالاة .. يوحى بصورته ان عليهما ان يهترقا الان ..
لم يبق لديهما ما يقولانه .. يترك ما تبقى من اللفافة في
سلة المهملات ، وينطلق ..

صالح يجد نفسه مدفوعا ورائه .. يكاد يعاذيه ..
يتوجس « رياض اليد » .. لم يكن ليظن باتباعه بعد
كل ما حدث .. هل يرد الاعتزال ؟ شيء قديم . تفسره
الصدور .. لم تسعه سنوات الابتعاد الطويل التي أملت
عليهما صعوبة في الحوار .. ثمة حباب لما يمكن ان تكبله
تلك السنوات في كيان كل منهما .. يفكر السيد : اصرار
من صالح على شيء لا أدرك كنهه يتعجل نيله مني .. إلام
يهدف .. الهوة عميقة .. لم يبق ما يقوله أي منهما للآخر .

منذ زمن حدث هذا .. والان ، الهوة تتسع اكثر ! ..
كل برهة تمر ، والا مع هذا الشقي . لكل جحيمة .. وبقي هذا
اللعين جحيمي حتى بعد سفري المتد .. من يصلح أن
يتصل عذابي به ؟ !! أينفص حياته مثل هذا المتبول ؟ .
ظل دائما منذ الطفولة يحسب له حسابا من نوع خاص ..
يعيش في داخله ويخرخ مثل ديدان الأرض الناشطة تاكل
متعته وراحته وصوابه .. الى هذا الحد تصل الامور مع
هذا الموس صالح ! . لماذا يصر على متابعتي دون أن
ينسى .. مر زمن حقيق لم تاله أمه : « كيف حال هذا
المكين : صالح » . كانت لا تمنع في رفقته ، مادام يبدو
مثل كلب ابنها الذي يهرسه .. وينع بعض أسنمها على
الطعام الفائض الذي يرمى .. لكن منذ حكاية تلك
« الرحلة » العماء .. لم يكن ليرغب ، لا هو ولا أمه ، في
ذكر صالح الفقير .. لم تكن تعلم أمه انه لبث يعيش في
داخله كل تلك الايام . يضاف منه ، ويحسب له حسابا
غامضا ينطوي على القلق . واليوم ، بعد عودته القربة من
أمريكا ، حين زاره في القصر ، لم يغبا به تماما . كان ينتظر
ذلك في حذسه .. ولو لم يسأل صالح عنه لال هو عنه

بنفسه . أحيانا يستلج القوة على التهاون بالخوف بمواجهة
الخوف . لكان الاقتراب منه يجعله أكثر تحسبا للحياة
وارفق به من كابوسها المتثل فيه . لكن عرف ضعفه
اليوم ، وخطل هذا الشعور . . . تأكد من ضرورة نف علاقة
صالح من حياته الى الابد . . . واستمداد قوة اضافية على
ذلك . . . عرف أن الذي حاول خنقه ذات يوم وهو صغير
في رحلة مدرسية ، يحاول ، اللحظة ، أن يفعل شيئا شبيها .

— ٤ —

اثناء تلك الرحلة المدرسية ، استلم العديد من الأطفال
الى نوم متع في سرائرهم في الفندق ، بعد يوم حافل
بالبهجة واللعب الشاق . واحد منهم بقي جفنه المفتوح
يطل على صمت الردهات والممرات وأصداء ضجيج ضار
طعولي فارط حائم مشت في الليل والزوايا . حكايات
الطفولة ، وأحاديث أعماقه تبدو له بعيدة الاصرة منقطعة
الصلة عن كل ما يجري حوله . لكان كل تلك الافراح التي
كان اترابه يفرقون فيها حتى الثمالة ، وتبدو شيئا لازبا
في حياتهم يجهلون في تنويمه ويسهرون في أدائه بطلاقة

— ٧٦ —

مدهشة . اما ، هو ، فلم يتطعم قط ان يناق حزنه . لم
يمش طفولته قط . وجد نفسه يكبر عاما في كل يوم يسر
هم . . . شيء كبير ثقيل لا يرحم طفولته املى عليه ان ينفذ
دائما سلوكا كبيرا في حياته . . وجد صعوبة في ان يتعامل
معه بالروح المقبلة ذاتها ، بالبراعة الخالصة ، بالاشياء
الصغيرة المتأثرة بهم وحدها . في الرحلة ، بقي يراقبهم
اكثر مما بدا أنه يلعب معهم . وكلما اتعت الابتسامة على
وجوههم السينة ، ازداد تطلعا الى داخله . . وكثيرا ما
يسمع بين حين وآخر وهو في حالة كآبة وسهوم وانبهار
بالوان الثياب الزاهية ، أصوات المعلمين تلعوه الى اللعب
العب معهم يا صالح ا . لم يلح ظرات عليه الانيقة
المتربة . ظهر له الحقيقة بعفوية بلا قناع : انه من فرق
آخر لا يؤبه له . . من فصيلة أخرى . . غريب . . يسي
بطء استجابته ، ويحتاج الى الشجاعة من أجل الانضمام
اليهم ، لا يمازجه هذا الصفو الساطع في عيون هؤلاء الصغار
المرهلين في خدودهم وفي قهقهاتهم . . لا يقدر على فهم
لغة افراحهم كما لا يقدر على فهم لغة انطوائه وكربه

ولا يهم أن يسكوا طويلا لكي يفهموا
هكذا كان الأمر دائما .. هنا عبر تجربة رحلته هذه ، وفي
تجربة المدرسة .

يجد صالح الصغير أنه يكاد يقطع غطاء النوم . تبرق
عيناه تحت ضوء تسلل من النافذة . راح يراقب بحرق
ذلك الذي كان يأكل على عتبة قصره ، كما لو أنه من كوكب
آخر يسط في راحة تامة . تذكر ثيابه الجيلة الجديدة ،
طعامه بمزاجات شرايه المثيرة ، حقبة أشياءه التي لا تنفد ،
دلالة الذي يجده الجميع ويتلقونه ، قطع الشوكولاته
التي تيل على جوانب فمه ، الوجه المستل . عافية حتى
ليتمزق . بدأت اهتزازات معبرة تنقل من داخل صالح
الصغير الى عيونه تعاكي ليله الموتور . في ضوء خافت راح
يتسلل الى سرير المدلل « رياض » ، لهث في الكون
المخادع . هو يديه الراضين الجافتين على عنق الوجه
السيك الذي لم يعرف القلق ضغط بثقله . تأوه المدلل .
جعلت عيناه وقبء جسده . حاول أن يفلت من الخطاف
- نجم لبرهة . صرخ ملئ ، فمه وهو يتقاوى واقفا على
السرو . صلبه صالح يديه مرة أخرى وقبل أن يصمق
تماما ، استجمع الأمر ما تبقى من طاقة غريزة البقاء لديه ،

ودفع (صالحاً) الى الخلف ، ثم تلفت هارباً صارخاً باكياً
يهفو إلى أن تطلقه الأيدي وتحية . في الوقت الذي
صاح رفاقه في الغرفة وخارجها حيث تقاطروا فزعين نحو
مصدر الصوت المفزع . توجهوا ماخوذين الى الطفل
الذي يبدو مثل طلي مسن ، التقطوا إشارته نحو باب
غرفة نومه وهو يصيح : « خنقني صالح ! مكوتني ! » .
ها هو ذا صالح متبناً زاوية الغرفة ، انتفخت
أوداجه ، انحسب الدم من عروقه ، وازدادت معالم برسه ،
لكن عيونه تنطق بشيء من الشفي ، لم تنفع معه كل
الأسئلة من الشفاء المقلوبة . وقبل أن يتفقوا على تأجيل
ضربه وعقابه الى الغد ، لقط مشرف الرحلة موعظاً استقبله
الجميع بترحاب وتساؤب معاً . . قال : « هذا الطفل رأى
مناً . » هل يعقل أن يعتدي على من دفع عنه تكاليف
الرحلة ! وأحسن اليه دائماً ! . . وقتئذ ، بطل العجب . ،
واستراحوا . . رياض المتأذي وحده رأى غير ذلك في عيني
صالح الذي لم يعر جواباً . . .



ظلت صورة الطفل المدلل مضحكة للمتطوعة كلما وقعت
عيناه على الطفل غير المدلل . نقلته عائلته الثرية الى مدرسة
خاصة استثنائية وهو في المرحلة الابتدائية الاخيرة . كبرا .
التقيا ذات يوم وجها لوجه . وجد السيد رياض نفسه يرد
على الترحيب . تعامل في سره : هل يمكن ان يكون قد
نسي قطه ؟ اما هو فلم ينس شيئا . ظل صالح يكبر في
اعناق رياض تماما كما يراه الان ..

قبل ان يترقا اخبر رياض عن استعداداته للسفر الى
امريكا قصد الدراسة ووعده برسائله . تراسلا باقتضاب
مرة واحدة . ثم انقطع بينهما كل شيء .. بالحري قطع
رياض اتصاله . لم تنفع رسائل صالح لتقصي اخباره في
حياة مجنونة . صار يمزقها قبل ان يقرأها ، وتهيق مواجعه .
ثمة ضد في حشاشة صالح ، وجع ، في خلايا ، دفعا دائما
الى تقصي اخبار رياض . يشداته الى جوه او عالمه ، رأى
هذا العالم وكرهه ، اراد اختراقه حين حجه .. وأصبح
يعي حقه فيه . الان يدرك صالح من خلال مسيرة حياته
وما شهده لدى أمثال هذا الذي يملك - كل شيء - ،
أهم لا يمكن أن يستروا على حابهم ، هكذا ، الى

الابد . ثمة شيء حقيقي يتظره عنده .. يخمه ؟ يخصهم
أسوار غامضة مظلمة بالأشجار .. او لدى فئة جديدة من
تجار البناء خائنة ترق وتبني هنا البناء الحديث المتد
هنا عنده ، أو هناك عند أمثاله .. في قصره المنيف داخل
على ساحات واسعة خارج المدينة . وعندما كان يصير
بالسابق على ان يقذف بالرسائل اليه ، كان كن يحرض
على اصرار الاحتفاظ بالوجع أمام العالي . « رياض اليد »
عاد من أمريكا خالي الوفاض الا من المتعة والمال . حين
التقيه في قصره بعد غياب طويل ، فكرت باننا كبرنا جدا ،
كبرت ظلماتنا . شيء خرج ، بفيض تفاقم في كل منا
أرادت ان تخفقه مظاهر كاذبة ذات مسزحة طفولية
مترجمة . لم يخف رياض عجه أمام الباب ، أحس
صالح أنه يود كرد فعل اولي ان يخفي نفسه بعصا سحرية
ثم رسم حاجباه علامة استفهام من رغبتني في علاقة قامعة .
علاقة غير متكافئة بالطبع . لكن صدري النحيل الجاف
الساحق رّده عن أية مبادرة سيئة او تعجرف قد تلغز به
العيون . رحب بي بسرعة . أمكنني بحرارة مضطعة الى

غرفة العالون . امتني على أبي زميل الطفولة في المدرسة .
كنت أظهر في حاشية القصر المنيف اللآلء مثل غلط ما في
لوحة .. مثل خط مشوه نافر في نطمة مزخرفة من
« الأرابيك » . وفوق طبقة سيكة من الحق ، والمحاصرة ،
والقرد ، تصنع الرقعة في معامتي ، عندما خرجنا معا .
حاولت بقوة أن أخفي رغبتني الجامعة بركوب سيارة من
تلك السيارات الرابضة مثل أسود مدللة أمام باب القصر ،
لكنه لمع ما أخفي ، وعاجلني بهم ابتسامة متشفة قائلا :
« التني على الأقدام ، مفيد وجيل » .

أثناء الطريق ونحن في الاتجاه نحو مركز المدينة ،
فكرت : « إن هذا الاختناق الخاص غير الإنساني الذي
يشكله عالم هذا المدل . فلا يسمح لغير أمثاله من
اقتحامه أو التسع به . لا يمكن أن يكون إلا في مجتمع
غير انساني ركيك .. يحتاج إلى آلة مطهرة ، ومغيرة ،
باتجاه العدل ، ونف المرتكزات العفة إلى الأبد . في
مغري لم ينس هذا المدل أن يقدم لي هدايا على طريقته
لي إهانة أمثالي والتلفذ في رؤية الحاجة تول في عيني .

في إحدى المرات : سابقنا بين جدار وجدار في باحة
المدرسة . تفوقت عليه في الباق . أصابه جنون من
ضحكتي ومرحي . ارتسى علي مثل كرة من منحدر :
« أك » ينظرونني » وقال اخلعه يا كلب اليس هذا من
عندنا . اظفروا جيئاً !. إنه من عندنا . شحاذ ويريد أن
يبقي » . وقتها خلعت نفسي منه . وانزويت متأثراً !
مرعوباً بعيداً عن الأقطار ، ولم أعرف كيف انتهى الدوام .
حتى ، غادرت المدرسة الى انقرفة الصقيعية في بيت
القريب . خلعت البنطلون ورميته مثل جرة محترقة في
اليد . أهلكه أياماً ، ثم عدت محتاجاً اليه بدا كل شيء
يتنا كالن لم يكن من قبل . شيء بريء ، طفلي كان يلعب
لعبه فنا ، لكن لم يبلغ إحساساً الحقيقي . أحياناً كان
يطلب البرائة يتفجر في سلوك عدائي واضح ، وصدام
لا يرضى المهادنة ولا يتصرف بالطفولة التي تجوز
الحواجز . هو يشل دور أليه الإقطاعي المحسن المتعجرف ،
وأنا أمثل دور الفلاح الفقير المحتاج ، الثائر المستوفر .
وكان يره ويقر عينه أن أحبه من أذية الأطفال ، لكنه
لم يكن ليقر بضعفه أمامي .. كيف وهو يدفع لي هداياه

وفروشه ومطامه ٠٠٩ قبل وقت في القصر الذي غادرناه ،
احضر لي هدية ملفوفة بورق مزخرف رماها بين يدي
كن يقول : اليس هذا شيء هام أثبت من أجله ٠٠ رفضتها
كانها قيمة ، استكرت وجودها بين يدي في إياه ، رأيت
تجاعيد فتحت حول عينه وهو يشهدني ، متبرما بها .
اتفض جـه بسرعة . وارتست على سحتة « لماذا »
بفضوية وسرعة ، ثم ما لبث ان عاد الى ملفه وتكلفه ،
يجاهد شيئاً في داخله بإبتسامة مفرا . حل صندوق
الهدية ووضعه جانباً وحاله يقول : « فيما بعد ! »
الهدية ذكرت صالح الحسن بالتول . أما زال يبدو
متولاً ؟ اللعة ! الهدية عندما وفعت بين يديه ردها
مثل لعنة أيضاً . هل يبقى الدؤوان على حالها ؟ هل
المال الذي يتفوق ؟ ألا تبعث على الكبرياء ميرة حياتي ؟
اصطخب قصص صدي وأنا أتالك دائماً فيما حلّ صت
ردى . جلس رياض السيد مطرقاً ، حاول أثناء إطراره
أن يشرق نظرة من الوجه المنتصب قبالة كيف . كانت
طيوف الخجل والقهر التي سقت مقلتيه دحراً طويلاً فيما
مضى ، قد تحولت ، اللحظة ، الى اشتعال مندلع مفرقع

منتظ .. فكر صالح : اي شيء هذا مقابل بؤس
وفقداني . كم من البؤس دفعه امثالا عبر التاريخ حتى
تقبلت انت وامثالك بهذه النعيم : وتأخذوا هذا الدور
الذي صنعاه لكم .

ما نبيه عندكم بحجم الاحلام .. رياض يعرض
اقتراحا يخلصه من جو القلق والصمت والحرج : « ما
رايك ! لنذهب الى السينما ! » . اوافق . ويختال رياض
بجانبه عبر شوارع المدينة الحبلى بالقطمان .. تاما كما
يختال هذا بيارته وسطهم ، وذاك بما يحصل في محفظته
من أموالهم ! في هذا الزمن لا يمكن ان يربو مال بشل
تلك الرعة المذهلة والاكداس المقنطرة إلا بوسائل مستغلة
بشعة وب عقلية وحشية ..

هذا الحانوت وذلك المرض يعرف تاما بدايتهما
المتواضعة ، وهم الان من اصحاب الملايين في زمن قصيري
غفلة عنا . من يساعدكم على هذا . أي قوة تتآمر علينا .
ماذا تبقى لكم اتم ايها الناس ؟ . اللحظة تحركت فهي
وافكاري نحو شيء يتوضح يتالق كما لم يحدث لي من

قبل . إني في حالة جهد نفسي وعقلي غير عادية . كاني
أقبض على شيء ثمين ، تعمل نفسي على مسح ما علق عليها
من غبار وإبراز ما نقش عليها من كتابة مصححة عبر الأيام .
لكنني أشعر أيضا بأنني ، نملة ، ضعيفة وحيدة تتأيل في
صيد هذا الشارع المتد المقتري . رياض اليد لم يعد
ينظر الى صالح مطلقا . كل هـه أن يتخلص من صالح في
صمت وحنق . في لحظات كان يشعر بالقوة على الوقوف
لتوديع صالح بصورة واضحة والاعتذار عن علاقة غريبة لا
تستويه والغلاص من هذه المطاردة غير المعلقة .
وليحدث ما يحدث بعد ذلك ، لكـه كان يؤجل مواجهة ذلك
في كل مرة . لم يبق لديه ما يقوله حقيقة . يشعر كأنه تحت
وطاة كابوس . كيف يحدث كل هذا ، ولماذا ، كيف سمح
لنفسه أن يخرج مع هذا المافون ! بدأت العاصرات الضخمة
تتحول بفعل الظلة المكثفة الى أشباح هائلة يأخذ بعضها
بأيدي بعض ، متعاضدة ، والدم يسيل من أشداقها فوق .
أحيانا حتى تكاد تهوي . ألقاسها تتلاحق . نمة سيارة
فارهة طائفة انحرفت من بعيد الى الناصية فجأة ، وهرست
مهروما للمرة الأخيرة . غضب صالح من هذا الشارع

الذي يخفي الاضرار .. لكأن شيئا لا يحدث .. حرق في
عيون أشباهه بطريقة جنونية وهو يوغل في معانيها يحترق
بما احترقت به . حاله النفية تنجلي أكثر عن هذا الشيء
داخله . « أين المنقذ ؟ . هذا الكون القذر ! » . صرخت
أعماقه . « أين المنقذ ؟ . هذا الشارع يجب ألا
يتصلح ! » صاحت أعماقه المتوترة مرة أخرى . هؤلاء
الداكين يجب أن يفعلوا شيئا آخر غير التسكع والانتظار ،
في وقت تبكي فيه وجوههم ، ينظرون الى الغلال ، وهم
بلا غلال ... ان يكسروا طوق الكون الذي يتلمهم .
يتآمر ضدهم ويلبب فيه غيرهم لعبة الثراء والحفظ .
أسيرون هكذا موزعين ، مشوشين بان هذه حياة ؟
ابصقة ! أأتم بشر ! ؟ . هذا ، الشارع يجب ألا يتصلح ! .
أحس بعري ، بحرق يحرق ويبدد ، بلقيا كشف ضائي
وحتمي . إحساس نفسي ضاغط وفزة . نور مبهر مشعشع
من « نيون » محل كبير يرقق الاظفار والاموال بلا رحمة
لكأن موجات هذا النيون المتناوبة بين الانطفاء والاشتعال
هي موجات غرفة نفسه اللحظة . وفي كل مرة يكون
فيها الاشتعال يكشف به عن ضرر لحق به أو حادثئقمة

ترسيت في الزوايا . حادثة الفندق تطفو على السطح قوية .
صراخ رياض الطفل يعلو بأشداق مفعونة بالنوكولاته
والزبدة والكاتو ... نتخرج أفكارا مربعة لديه
فداسعورا يلاحق كتلة لحية . رياض ! . أين رياض !
الظلمة ، والأضواء المزفة ، الناس المحقون
المسكون ، السيارات المتدفقة بالمطبور والأبهة ،
العوائت التي تمتص فلا تتبع ، الطرقات التي غدت صلبة
بلا قلب .. حركة الحياة هذه المخلخلة بأبراج النور - كل
ذلك يتأمر عليه وهو يتناول بقدميه على الناصية يبحث
عن رياض الضائع مثل هبة دخان . يحس بأن شيئا يباوي
عمره انسحب منه على حين غرة . ترنح عالم من الدحر
والوهم فيه ، أحس بشيء من التخاذل كان
عقربا له وتحت سمومه في دمه . اقتضى . لا يريد أن
يتخاذل . عنف ، فوران ، مخزن قوي يمر خلاياه مرة
واحدة . يجب أن يختار . يجب أن يختار هؤلاء أيضا
لينقذ شيء ناري يشمل هذه الحياة اليابسة الآتية حتى
تلد أخرى جديدة . هؤلاء ، إنه يعرفهم . يحتاجون إلى
قتيلة فقط . ماذا يخشون باختيارهم الثورة .. لم يبق
لديهم ما يخشون .

حوله عراء فيه ظلمة ونور .. نور وظلمة فقط لاغير ..
في نفسه نور وظلمة يتاويان بوتيرة عالية . امتلا كيانه
بشجاعة فائقة . النور يغمر قلبه . التفت حوله في حب .
يحل في قلوب المتعبين . مظاهر الهدوء أشبه بكينة البحر ،
لا تعني أبداً أن الحالة مستقرة . إنه يعرف هؤلاء ، في
كل منهم « رياض اليد » من نوع ما يعذب ويؤرث .
يدري ما يجري في أعماقهم في الخلوات . يصنعون شيئاً
بأعماقهم في الخفاء . يا أهل الفاقة ! . ليك بعضاء ..
بأيدي بعض . لتتسوا حواراً جديداً بقوتكم ! . ففي
مثل هذا العالم الادر الذي تتحقونه . يجب ان تنالوا
حظكم وفيراً منه ، يجب ان تسود فيه تلك القوة . فعل
واضح راح يعطى بقدميه وهو ينقل بخطواته باتجاه منع
حركة هذه القوة . لا ينقصه شيء . لاشعال الفتيلة مع
رفاقه وتفجيرها في تلك الأغلبية الصامتة . الجميع لم
يعد ينقصه الحقائق والاحلام . يرى اللحظة تلك الجوع
المثاقلة تهمز كالريح الصرصر تهب كالاعصار ، تسلا
الشوارع وتعاون مع كل من يقف ضد ظلم الحياة والنهب ،
وترفع العدل وتسقي الامل في عيوش البؤس الذي مآله ..

تهدم القصور وتزحف الأكواخ الغائبة .. يتأوى الناس
كنا في طهر الزمن الأول . من هذه الليلة هو بيته
ليبدأ شيئاً مع رفاقه . خطواته كانت تشدّها في الظلام
أصوات غير مبجوحة بفعل البرد وتأثير هواء مصباح
الكاز المدخن . ثم تعالت ضحكات لم يلدغها بأس .
صخور وقلاع معروسة بكلاب آدمية تشابح أمامه عبر
السواد تأخذ صورة ملامح وتقاطيع « رياض اليد » فتثير
به جيشان الغضب المركز يقف وراءه بعيون واسعة ،
وصوت أغنية القيلم يطو بنغم جديد : « أنت يازوبعتي ! »
أنت لهي الوحشي ! » .



مساعدة الناس

اللحظة ، أتجمع على نفسي من البرد القارس ، متبذا
أصفر زاوية من مقعدي . أتحايل بأفكاري على كآبة
منبثقة بقوة من أعماقي . تملكني لبرهة رغبة الير تحت
المطر حتى المنزل ، لملي أقلقل هذا الكرب الغامض واشتت
رؤى سوداء تملأ رأسي هذا اليوم . لكن رغبة أخرى
مقابلة انبثقت وددت أن تطفئ ، وهي تتمجل أحدا يجلس
بجانبي ، عسى أن ينبعث الدفء في قلبي المرتجف .
ها هي ذي حافلة حي « الميدان » في دمشق تسير
متأيلة كعجوز هرمية ممكة بخصارتها . يرين على
جوها الداخلي وجوم قاتل ، وفي العيون جوع الى مادية
الغداء . الاطفال في المقعد الخلفي تفرثر ثرتهم شيئا بعد
شيء . تعثر الحافلة فجأة ، ثم تقف ، مثل دابة عشواء
ذات آلية ضامرة . تندفع من الموقف جموع غفيرة لتثبت

بسه . لم يكن هناك موضع لغرزة إبرة ، ومع ذلك فالزحام
يشتد ، وأشكال الناس تتعوج وتكاسر . في سري يروح
الكل ، لكن روحي تتفيق بسرعة من اثرتها مشفقة،
وهي تنهد تلك الجوع الكادحة ترنص كقطع اللحم في
الطب . تصت العيون المرجومة . أرسلت خيالي في
اعماق هؤلاء الناس الذين أرافقهم كل يوم . القلوب نبض
بمير واحد . تلتقي بارادة في هذا الحيز المهمل الضيق
من العالم ، في صندوق حديد مهترى، تتعاش السيارات
القاهرة المتكرثة السير في طريقه ...

قام من بجانبى . جلس آخر كيف في صدره عجرة
عطية . كان يألني من حين لآخر عن المواقف التي
وصلنا إليها ، رافعا الي عينين ، زادني جمرها المترب
المظا قطوبا وحنانا . أقمع رغبتى العيقة في التأمل كيلا
يترب مني موقف نزولي . أرمي بنظري الى السوراء،
أعود ألتقط الوداد من بعض الوجوه التي أعرفها أكثر،
تحدث بصت عن حال ، تواجدنا التمس في هذه الحافلة .
أشمر بارتجاف جد الكفيف المسكين . قبل أن أعود
الى أثروائي ، يعلو صوت حار عميق مختزن من نهاية

الحافلة « صوت يعوي بالـم كان تجيدا لرغبة في الصراخ
لدى الاغلبية ضد العنف والاهمال والطلول ...

— يارجل ا (يعني السائق) • أغلق الباب ! •

ثم يتوجه الصوت الى الناس متنجداً وهو يهدج:

— أغلقوا الباب ياناس ! • نكاد تجدد ! • اللعة على

عمرنا • موتة ، وعصة قبر ! ••

يرد قاطع التذاكر بلهجة حافقة :

• لا ، لن يفتح الباب ! • تريد أن نخنق ! ؟ •

ساد صمت حذر • التفت ورائي تلقائيا صوب الباب

الخلفي • بصوي يرتد وهو حير • يصطدم بالجسوع

المتمايلة على هزات الحافلة المتدحرجة في دروب منكوشة

مترعة برامات الماء • دمتق القديمة على الجانبين تدهمها

الارياح وهي تجار •

يجيء الصوت متشظيا داخل ابقاع المحرك المطلق:

— وماذا يعني هذا ! ؟ • لا بد أن تهكر بحالنا من

يتلم القيادة لا يدير ظهره الى الناس • ما بقيت رحمة؟! •

يقول الصوت عبارته الاخيرة ، ثم يأخذ بحث الناس

على الابتعاد عن الباب . يجعل بعضهم وراءه ، ثم يساعد
الباقى واحد تلو الآخر ليجدوا مواسم ، لأقدامهم ، وينادي
— ها هو ذا الباب حر . أغلق الباب وافتح نافذتك! .

اكف ا . الطمع ضر ما تقع .

السائق لم يرد ، قاطع التذاكر تنطح في الكلام وهو
يفشخس بالنقود في جيبه الكبير أمامه . . يقول :

— لماذا تدخل بما لايعنيك . لو تركناك على قارعة
الطريق ليتنا وفتت لعيتنا . ألا ترى ما يجري في
الخارج . أنت الذي لايفكر الا بنفسه ، بعد أن استقر بك
العال . .

الصوت يبتلع القدرة على الجدل دون أن تبذل
وتيرة . الأذان صاغية . مثل هذا الجدل يشغلهم دائماً .
يقول الصوت :

— الحافلات كثيرة . كل منكم يود أن ينال حصة
الآخر . ليست القضية في الشفقة على الناس . ان السير في
الخارج غدا أفضل ألف مرة مما نحن عليه . . قل لي : من
يضمن سلامة العافلة الآن . لديكم لسان يدافع عن الباطل

دالماً • دالماً • الغريب أن كل هؤلاء، الناس قطعت السهم
أيضاً ، فلم يعبر أحد عن برمه وضيقة .. انظر الى الوجوه ،
استمع واغلق الباب فلم تبق لك حجة • الاصوات تابع
فجأة :

— أغلق الباب • ألم تسمع •

— هيا • الناس ماتوا من البرد •

الاصوات تحولت الى صرخات غاضبة • أغلق الباب
من عند السائق • يتنفس الناس الصعداء • بعض وجوه
النوة الجميلة ترفع مناديلها وتبحث باعجاب عن مصدر
الصوت • بعد ان شاركت في الهجوم على السائق وقاطع
التذاكر ، كان الالم يفور في صدري • كنت أفضل ان
تبقى الوجوه هكذا للحظات ، لكنني أدت رقبتى بقوة
باحثاً عبر الرؤوس والاجساد عن الرجل •

كانت الحافلة تفقد الركاب الواقفين توازلهم • بدا
الصوت على هيئة رجل ضئيل متعرج • تقاسيم وجهه
حادّة ، تشر باحترام قوي يمنحك من التحديق في وجهه
طويلاً • لايفتا يتحرك • يكلم الناس بود • أحبت أن
أطيل النظر اليه وهو يحكم غطاء رأسه الأبيض ، ويمسك

لحيتة البيضاء ، ثمة ضوء يصدر منه تتقبله نفسك بعض
الوقت ، ثم تركز حوله وفيه مهابة التحفة الثينة القديمة .

الكفيف يجاني يلقى قائلا :

— هذا رجل قلبه لله . يدفع عن الناس الظلم . كل
واحد يجب أن يكون كذلك . لمن ندع هؤلاء . لا أحد
ينصفنا . أكثرنا فد . الى أين وصلنا يا أخي !

قبل أن أخبره تجمعت المكان المتضيق الماطر . حنا
رطوبة الزجاج ، أقول له :

— الى باب المصلى . هل أساعدك ؟ .

يخاطب الكفيف السائق بدلا عني :

— على مهلك ! .

صوته ضعيف متردد . لا أدري كيف وصل هذا
الصوت الى أذن الرجل . فبقني الى المصباح :

— على مهلك . على مهلكم . افسحوا له . « حان »
ينزل ! . لم يكتف الرجل بالتبته ، بل يبادر في خفة غير
متوقعة من في سه الى تغطي الرقاب والامساك بذراعه .

يكاد يحمله . قاطع التذاكر يطلب الخلاص . السائق متجههم لم تعد له نية في الدخول مع الرجل في مناقشة أو تكيك . يسر بخاطري ، وأنا أشهد تعاون الركاب للامة الكفيف ، حوادث مرعبة نتيجة رعونة بعض الحافلات . رأيت ذات مرة شيخا يهصر عظامه إطباق شقي « كعاشة » الباب . وقتها صرخ مفجراً كل آلام عمره الدفينة كما يصرخ الرجل الآن .

— لا أحد يحب الماعدة . ما هذا الزمن العجيب ! .
فقدنا قينا وشهامتنا . لولا أنني صرخت في وجوهكم لما مد واحد يد العون ! . هل تفرون ؟ . خيل إليّ وأنا أظن الى عيني الضرير المفتحتين المفلقتين ، أنه يرغب ، والحق معه ، أن يكون الناس جميعا عرياناً ، وأن يظل هو أيضاً أعى . ما رأيك يا شيخنا ؟ .

يلتفت رجلنا الى رجل دين بزي معروف ، يتسم الشيخ . يصلح من عمامته ، يمز رأسه بإشارات غامضة ، ينطوي رجلنا على قدرة هائلة على التأخير ، كنت أظن اليه طول الوقت . قل الزحام . تنبعت الى أن بعض الناس

اتقل الى جانبه ، حتى غلت الحافلة مقسومة الى مجموعتين
زمرة قرب السائق لا يعنيها او لم يسحبها الامر ، اثنان او
ثلاثة منها مرتبطون بعلاقة مع السائق ، تفوح من تبادل
ظراتهم المداهنة الملاي بالتافق .. وزمرة اخرى دفعهما
القضول ، او الاستئناس بحديث تناقلوه كثيرا فيما بينهم
يجري الان بصوت عال موقظ على لان الرجل . الوسط
خال الا من امرأة جلبت الكثير من خضار السوق وضمت
بعضها في حفتها والاخر على الارض لصق مقعدها ، مما
سب ارتباكا لكل داخل وخارج . كان يبدو على قاطع
التذاكر الحق ، كلما حذجها بصره منها الناس الى
مواقف النزول :

— « قرشي » : « جزماتية » ، « طالع » ..

الرجل مثل أقمى نسيطة اخرجت لسانها يخاطب الشيخ
رجل الدين :

— لمَ يجب ان نحب الناس ؟ لم علينا أن نشد من
رباط الحب قبل أن تمنحنا داهية لا تبقي ولا تذر ؟ الا
يكفي ما آل إليه حالنا من انشقاق ومعاملات باطلة .

بعضنا يأكل بعضه الآخر • كيف تدين ندان • أما آن
الالوان أن تهم ونمي • أي مستقبل اسود يتربص بنا
جميعاً • نحن فقراء الارض يجب أن نصف متكاثرين ضد
أوجاعنا •

يوافق الشيخ المعصم :

— هذا صحيح • فد كل شيء • استغفر الله العظيم •

يتابع رجلنا في كبرياء :

— انا قوي • اترون ؟ • (يضرب على صدره مرتين
بقبضة حديدية) انني أعيش على الرغم من كل شيء •
مرت بي ظروف علي مواجهتها وقد واجهتها • هل تدري
ما هو عمري (يخاطب الشيخ) • حناً • عمري ثمانون
عاماً • هذه الحافلة أصغر من أحد أولادي ••
والآن ، لماذا أنا قوي شديد ؟ ••

يضحك الشيخ ويلمح بعينه الحضور : يمازح الرجل :

— ثمانون عاماً يا عبد الله • هذا لا يصدق • أنت

شاب اذن ! •

— حنا . لا تظف ! . نمانون الاستين .

يبدو ، اللحظة ، على قاطع التذاكر ، استعاض عظيم
وهو يسند جنبه على ظهر مقعد في الامام . يسند الرجل
اليه بصره ثم يتأفف :

— هل تذكر يا شيخي : الامبراطور غليوم . . امبراطور
الملاية عندما جاء الى دمشق ؟ . خرجنا وقتها جميعا لنراه
في المهاجرين .

لا تدري في أي مكان . رابناه في المكان المسمى
بـ « المصطبة » . هه ، لقد كان يربض على مصطبة فعلا .
والآن أظنني صغيرا . عري نمانون ، لكنني شاب .
هل تدري لماذا مرة أخرى ؟ . .

الشيخ يبدو عليه الفيق . ثمة شيء يشغل باله .
ابتسامته المرحية تترايل . يتحرك بسرعة بإرادة قوية . يد
ملوطة آلية تمتد الى كتفه ، تجذبه بصلاية قبل أن يفادر .
— لن تغير مكانك أو تنهب حتى اكمل حديثي
(يقول الرجل) .

— وما له ! . حنا . كلي آذان صاغية . تفضل ! .

الشيخ يحدق في الوجوه التي تبرز له ثم يترك .
الجميع يود أن يسمع المزيد ، وهم يدركون درب حافلة
حي الميدان الطويلة . ثمة نظرة لدى الناس بدأت تكبر ،
ترغب في أن تنصت الى احد يتكلم بصوت عال . كلنا راح
يتفرقع على نفسه يتكرر بقلبه وهو يشهد الحياة بالقلوب
دون أن يفعل أو يقول شيئاً . قوى الهيئة العربية في هذا الزمن
المرابي العكور تبالغ في لعبة التكميم الى اقصاها . خطاب
الاحتجاج من قبل الرجل بصورة عنيفة وقحة يفدو
متهمناً في زمناً . أن يباشر الحوار بلا مقدمات مع
الناس في بطن حافلة محملة بمهارة وابتذال . كنت تشر
وانت تراقب الرجل انه مغبط باحتشادهم حوله ، وان
تواجههم في الحافلة فرصة لا تضيع لاعلان صوته ، وانه
يريد أن يحرض بذور حياة جديدة ، عرف انها الاصلح عبر
تجارب عمر مديد ، وأنه يستلك القوة على المبادأة فوراً .

يرفرف الرجل بعينه ويقول للناس :

— الآن نبداً فقط . أنت فقير مطحون ! . وانت شبه
شعاذ ! . وانت متور قليلاً ، غداً تتكشف وتبين مؤخرتك .

وانت لا تملك دواء لفترتك . وانت هدرت رطلا من
المرق ، وتقومت رجلاك حتى حصلت على قليل من
السكر . هل تعرف عظام أبنائك البيض والزبدة والحليب ..
وانت .. وانت .. اعرفكم جميعا .. اعرف معاناتكم
الخطية .. لكن هل وقف احدكم امام خباز يصرخ في
وجهه ، ويوجه اليه تهمة النش وسرقة لقمة العيش والمتاجرة
بها ، هل مارس احدكم لذة علو الأصوات ضد السارة
في كل مكان .

اوطانكم ترق واثم صامتون .. حياتكم تهدم يوما
بعد يوم واثم صامتون . فرحكم اغتيل من قبل العقارين
والملاكين الذين لا يشبعون واثم صامتون .. هل وجهتم
الاداة الى بعض من هؤلاء الذين يكتبون بطاقات ترويجية
لامعة باسم القانون ثم يقبضون الرشوة ، هل فكر احدكم
في طريقة عقابهم وهم يتزود ويمنعون عنكم بعشمتهم
كأولادكم .. تصون بـ (الخطيئة) فقط وتتأبسون .
اهل القوف الخفية لم يكونوا يعرفون هذا عبر مدى
التاريخ . من عندنا يبدأ التقويم .. مثل هذه الحافلات
التي تركبوها يجب تكسيها فوق رؤوس اصحابها ،

تنددون بأصواتكم العالية بالسائقين الذين لا يرفعون ،
تطالبون بحقوقكم وتجترأوا .. أجل هذا ما فعلته ودعوت
إليه دائماً .. ومن هنا سر عسري الطويل وشبابي الدائم .
كنت بين الناس ، عانيت ما يعانون ، ورفعت صوتي
بالأمهم . هل هذا يكفي ! . لم أترك العنت يأكل مني .
جعلته ينال من صانعيه .. لاحقوثي دائماً وقالوا بأنني
مجنون . منذ زمان طويل وأنا من يضع في عيون الظلمة
المخارز التي تقبوا بها أيامه . مجنون من يب فلاناً او
علائاً ! . مجنون من يشكو من تاجر قدر لا يخاف الله ،
ولا يخاف الناس ، مادامت أمواله جسوراً تطول وتطول .
مجنون من يشجب الخطأ .. مجنون .. مجنون .. حتى
الله تخلى عنا لاتا تخلينا عن أنفسنا .

كانت كلمات الرجل قوية متابعة يضغط على حروفها
بثقة وحرارة وألم . بدت أسنانه كاللؤلؤ وهو يفتح فمه ..
عندما وصل الى عباراته الأخيرة كان يهتز بكليته ، يتقاوى
على الاجهاش ، يصر على ألا يظهر ضعيفاً أبداً ، على الرغم
من جروح عمره العميقة :

— « مجنون » ! .. « مجنون ! » ..

دوى صدى هذه الكلمة في رؤوس متمعيه ..
حدقات بعضهم تطل عليه بالهواجس والشك بل قل :
الخوف . عبرت عن ذلك عجوز علقت بصوت يخشخش
مثل أوراق يابسة تلمب بها ريح :

— الشيطان ، الثرثار .. استغفر الله العظيم .
استغفر الله العظيم . لماذا بقي يا الهي أمثال هؤلاء ،
المجانز .. يا للنة ..

ظرت إليه العجوز بشزر ، تحرك الرجل بخفة يحمل
لها صرتها الثانية ويراقب الباب والسائق مهياً لها راحة
قبة مناسبة حتى تصل بسلام إلى الأرض مخاطباً السائق
بوضوح له دلاله :

— انتظرا ! . ازل أمك ! .

ثم بدلا صوته إلى لهجة حانية ..

— على مهلك ! . الله يامحك . الله معك .

يعود الرجل إلى مكانه . التقى الشيخ ، المعصم وراعه

ينتظر وحتى يضح له قبل أن يعلق الباب ، وعبارة • لا حول ولا قوة الا بالله • تتردد على لسانه بصوت خفيض .. كانت هذه العبارة نفسها ، قد انطلقت من فمه بصديق وغضوية ، اثر انتهاء الرجل من حديثه السابق • آتئذ ، حار الناس وهم يعاينون الشفقة تكسو وجه الشيخ المعمم ، في معرفة كنهها • هل هي شفقة الشيخ من نفسه وهو مجبر على المأيرة ؟ ، أم شفقة الشيخ على معاناة حياتهم التي تحتاج الى صوت عالٍ يتحمل معهم مسؤولية تبيينه ، أم شفقة الشيخ على الرجل ؟ هل هي شفقة بهذه المعاني جميعاً ؟ لا أحد يدري الا رغبة الشيخ بالتزول الذي يادر الى مدّ يده الى رجلنا مودعاً ، مشعرا ايضاً أنه لا يحتاج الى المساعدة كما فعل مع المعجوز ..

— أجل ! • صحيح أن لا حول ولا قوة الا بالله يا شيخني • لكن المباشرة بالحق عبادة • والله لا يضير ما يقوم حتى يضروا ما بأقصرهم • ارفع صوتك يا شيخ ، ولا تخش في الله لومة لائم • (يقول الرجل) •

السائق لم يعرف كيف تغلص من المعجوز وما تعمل

كم غيظة الشديد من هذا الرجل الذي يجمع حوله الناس،
ومتعد أن يفعل أي شيء غير متوقع . طريقة ائزال المعجوز
بمساعدته ، أضاعت الوقت ، وبدأت غير معتادة للجميع .
قاطع التذاكر بدا أنه يهيئ نفسه لشجار قادم لا محالة .
وعندما رأى السائق يد الرجل تقبض على كف الشيخ
وتعطل سير الحافلة لم يكتف بواصلة الضغط على الزمور،
بل راح يوجه كلاما أشبه بالثيعة إلى الرجل ، مما شجع
قاطع التذاكر على التحرك باتجاه الباب ومخاطبة الاثنين
معاً :

— إذا أردتم الحديث ، فائزلا معاً .

ثم يوجه كلامه إلى الرجل :

— ائزل وخلصنا يا . . ما رأت عيني على شاكلتك . .

الطويل بك مقامك هنا ! . .

أقلت الرجل يده . لم يمنع الموقف من أن ينزل الشيخ

المهم نزولا معترما . ارتفع صوت المحرك . يقول الرجل

مودعا الشيخ مطالاً عليه من الزجاج الخلفي العريض :

— مع السلامة ! • ولا تؤاخذنا فنقول هذا المجنون
اللعين ! • مع السلامة •

الرجل لا يريد أن يظن لوجود قاطع التذاكر ، ولا الى
ما تنوء به منذ برهة • قاطع التذاكر اعتبر ذلك ما يشبه
الاتصار ؟ وأراد أن يحتفظ بشوة ذلك ، فابتعد مبربرا ،
أما الرجل فعاد الى مقعده الخلفي الطويل الملاصق لمؤخرة
الحافلة ، يقول شيئا يريد أن يخلص اليه ويؤكد :
—

كلنا تقع عليه المسؤولية في التبشير بالمحبة ، والمعاملة
الطيبة ، والاتحاد ضد اعداء الانسان ، دون الخوف على
مكاسب زائلة تبدأ وتنتهي من عند حيلة غير كريمة ، الموت
افضل منها مادامت غير شريفة وحررة •

الحافلة تواصل الحركة مثل دب • لم يكن الرجل وحده
يتمخط ، بل لقد أصاب الزكام الحافلة كلها ، فأخرجت
سعة متعصية تزخر وهي تندفع وتتمثر ، تحاول أن
تكون قادرة •

يبدو الرجل الآن في المقعد الخلفي ، مثل ربوة عتيقة
لم تلتصق بالأرض بعد ، تساءلت : هل تعب ؟ • لم يشعر

بي . لم يبق حوله الا القليل . ماتزال لديه رغبة ملحة
حيث ان يسمع شيئاً جديداً من الناس ، ولو كان واحداً
احداً منهم ، حتى يهدأ باله . يشير في اعتقاد باله لايهدف
الى مكان معين . وقد لا يكون مسن يرغب في النزول
مطلقاً .

لوهلة أصابه قلق عيق . ليس مثل مرض ، تأصل ،
بل عارض . رأته وهو يسبح الحافلة من أولها الى آخرها
بعينه النافذتين ، كفارس قديم يطلب المصاولة ، ويتحدى
من يخالط أو جازود على ما ترسخ في حقيقته الداخلية عن
واقع حياتنا ، وعن كيفية التصدي له .

واحد مهتم تبدو عليه آثار النعمة ، يجلس في المقعد
الأمامي ، أدار رأسه للحظات ، لم ينفذ فيها كراهيته للرجل .
اعتبر ذلك تحدياً . رمزاً قبيحاً في نظره يصر على وجوده .
يقف الرجل على قلمين ثابتين مثيرة دهشة من تبقى في
الحافلة ، بعد أن اعتقد الائق وقاطع التذاكر على الخصوص
بنهاية مرحلة بعد انقراض الناس . الرجل مستعد للضرب
من يملك النعمة أسقط في يده . يد أنه يعتقد بأنه محمي ،

ولن يصل حنون أو خرف هذا المافون الى حد الايذاء ..
يقول رجلنا وقد توقف عند رأسه :

— بالله عليك قل لي ! . ما شألك . زمان الخوف منك
ولتى الى غير رجعة . أظن نضك على حصان أدهم فسي
قربتك الظالة ترفق من يحف بك كدود الارض . انصر على
(البيكوية) حتى اليوم . انيت أنك تركب معي في هذه
العافلة . هذا حالك ، مهما تلمعت ، بلا ألقاب أو أحلام
مخادعة . أنا أراقبك منذ فترة . التفت اليّ مرات ، طربوشك
الاحمر لا يجعلك طاووساً ، ووجهك المتفخ يغريني
بضربك . كنت توزع الكلمات وترى الى من حواليك
متهجاً ، لكأني بك تقول : انظروا الى هذا الشحاذ
المجنون ! أليس هذا صحيحاً . أليس هذا مضحكاً وحقيقاً
أيضاً . لو كنت غنياً أو صاحب مقام مشترى لتصح
الناس بي ، وامتنوا على ما أقول ، وقد يعبروني نياً
لأنني مجاهر ببيان الحق . هذا الفقير أمامك حارب
الفرنسيين ، وخاض حروباً ضد ابني أينما حلّ . حاربت
في فلسطين ، ورمت الحجارة والأقذار في وجه حراس

حكومات التجويع . لم أكن يوماً غرباً عن أحد . كل
امر يهيني مادام فيه ظالم ومظلوم . أترى ؟ من هنا
سر جنوني . هل يجيبك . انني أسالك ؟ لماذا لا تحضر
جواباً ؟ .

صاحب النعمة يكاد يفتنق ، قاطع التذاكر صدينيهما .
بعض الركاب تحفظ متشكياً وهو يسمع ويرى ، وقد
أعجب الرجل ذلك ، واعتبط له . أما من تحفز للتدخل
فلكي ينح مشكلة يقع فيها هذا الرجل الذي يغلي ١٦فة
وصدقا ورغبة في أن يقول أشياء كثيرة يود الآخرون أن
يستمعوا لها ، ويكس انطباعاً بأنه حاضر للمساعدة عندما
يتخطى الناس عنك . فهل يدعو لهجموح الغضب . صاحب
النعمة يقف بوقوف الحافلة ، ويصق ويعلن عبارة صريحة
بصوت مرتجف في وجل الرجل :

— ليس الحق عليك ، الحق على هذا الوقت الذي
تغير فيه كل شيء ، وشهدنا أمثالك له لأن يتكلم ويتجبح .
مكائك في مستشفى المجانين فقط . الحق ليس عليك .

يتلحرج صاحب النعمة بين تظمين قاطع التذاكر وترويح
السائق عنه . الرجل يرد قائلاً :

— أعرف هذا الذي عندك لتقوله . ربح ! . سترافنا
أفضل عندما يحين وقتنا .

الرجل غضب غضبة شديدة وزمهرت حدقاته وغدا
مخيفاً فعلاً . قاطع التذاكر والسائق لم يوحا بها يجترح
في صدرهما . تجاهلاه متائلين بصت وهما يميزان
رأسيهما : متى يخلصنا هذا الرجل من قبه !

يصيح قاطع التذاكر :

— حمام ، حمام الدرب ! ..

يهدأ الرجل . يلتفت . يتحرك بسرعة الى آخر الحافلة .
يسك بارغفة خبز حارة سقطت للنور على أرض الحافلة
من قميص عامل مزق كان يحضنها بحرس ويضغطها على
صدره . غفا العامل قليلاً . أعادها اليه مبتسماً بعناية
وعطف . يجلس بجانبه ويألفي بفته :

— كم الساعة الآن يا استاذ ؟

أجبت وأنا فزع من أنه يميء لي شيئاً . كنت مشدوها ،
ساحياً ، لكن عامراً بالتأمل والتوقد والتأهب :

— انها تقارب الخامسة ، الرابعة والنصف وخمس
دقائق .

— حنا ، لماذا تجيني وانت ضاغط نفسك ، وانتهت
لي كن أصابه لدغة . لا تنف . أنت منا . أمثالك من
نحتاج إليه أكثر أنا أعني ذلك . يقول الرجل وقد استعلن
داخلي ببصيرة نافذة ثم هس بين يني وبين نفسه كن يقرأ
قصيدة حزينة :

— اللعة ! . متى تشرق الشمس في أفقنا . كم اتوق
إلى أن أشهد لها قبل أن ...

مرّ وقت قصير وهو مطرق . حدث في سقف العاقلة .
انصر في الجو خارج النافذة . يلتفت فجأة إلى لهفاً
يشغله شيء :

— كم الساعة ؟ . لقد سألتك من قبل ! . كم هي ؟ .
(يقول الرجل) .

— الرابعة والنصف وسبع دقائق . (أجيب بإسطة
دون استغراب) .

— في هذا الزمن يسقط واحد ميتاً من الركض الذي
لا ينتهي وراء اللقمة الصعبة المستحيلة . يسقط دون أن
يراه الناهبون . مات بعضنا حياً . انه فقير . قالاغنياء
لا يموتون في النهار . . . الاغنياء لا يموتون في النهار . .

ينفض للنزول فجأة ، وعيناه تبرقان بدمع خفيف .
دقّ على الباب الخلفي : ان قف . كانت فرصة ثينة للسائق
ليخلص منه على مخالفة قانون السير . يقفز بخفة من
الحافلة التي لم تكن بعد . ودّعني بأسى وحنو معاً .
كنا قد اقتربنا من آخر الخط ، لم يبق الا امتار قليلة .
السائق لمن شجعه الغائب من المرأة غير اسف عليه ، وقاطع
التذاكر اقرب ملاصقا المقعد الخلفي يعاين وجهه فسي
جذب لم يزل اثره عالقا على وجهه على الرغم من كل
مضايقاته . توقفت الحافلة بعد برهة . رجعت باتجاه وجهة
الرجل حيث اسكن ، اشعر بقوة غريبة تبعث في كيانه
في طريقي الى المنزل . الريح باردة . والارض بليلة .

ضمت وجهي هبة ، الرؤية ضعيفة . اقتربت أكثر من
الجنّازة التي لحناها بسرعة منذ قليل . جنّازة هزيلة يشيخها
نهر قليل ، لا يعدمون حساسة التماون في حلها . بعضهم
بسرّاويل طويلة سوداء فضفاضة ، وبأغطية رأس رمادية ،
وبعضهم يلبس أي شيء يترجّله . في المقدمة أحدهم
يكّي ويشهق يسكّ به اثنان من الجانبين ، وآخرون يلاحقون
الجنّازة عن بعد . يمر بي الآن الصف الأول ، أرى الرجال
الأربعة الذين يعملون الجنّازة . رغبت في المشاركة .
واحد منهم خيل اليّ أنّي عرفته منذ زمن سحيق وأنا
أطلب أن يخلي لي مكانه قليلاً ، تبادلنا ظهّرات الود
والامتنان . انه رجل العافلة . كان يتقل متحمّاً وهو
يعمل النش من جانب الى آخر ، ودموع ثقيلة .. نديه
كالمطر تغلف عينه الأسطورتين .



ذو العين الواحدة

كان يعمل في حانوت حقير ، قرب مجتمع من الماء آسن ،
في ضاحية المدينة وعلى كسرة تويغته للناس الملقين فيه
الأقذار من أرجاء الحي الغريب في نظره . فإنه لظالما سكت
مصحوراً على أمره ككلب . وهؤلاء أبناء الذين ضلّوا
ولعنوا ، لا يزالون يقذفون من أفواههم التنة تلك
العبارة المحفوظة : « أبعد من هنا وإلا قمت لك الثانية » .
كان يود أحياناً أن يجيبهم : « إني أرجو ذلك ، فالراحة
طريق الميـان في هذا الحي الوسخ ابن الأربعين حرامي » .
لكن ثمة سهماً كان يصيبه في قلبه . فيحتن دمه .
وينفجر باكياً بغضب منفرداً في زاوية الحانوت الخلفية في
الداخل . زاوية نظيفة يرعى نضارتها ، وأناقتهـا ، مهية
دائماً لأزماته . يبدأ عن الأعين . . . هذه الأفكار وغيرها ،
لأنجد وقتاً ، أحياناً ، تسلل فيه إلى دماغه ، وتتركه ، إلا
حين يتصب أمام سله العتيـد ازاء النـدان ، راشحاً

بالمرق الغرير من صدره ، وذقته ، وأثقه .. وهو يزجره
إلا يكف عن دوراني يد الكير ، لأعنا اليوم الذي لمح فيه
عين المصائب .

— .. طرق .. طرق .. طرق ..

لوى الصانع رقبة بعيدا عن زحم النار . مسح بكفه
المتفحم طرف عينه راغ في مكانه ومعلمه يقف مدهوشا من
حركاته .. أزمت النار وتلايلات في وجهه كآلاف المصاييح
كف يده قليلا ، رسارح الى قضبان الحديد الطويلة ،
ووضعها أمام معلمه .. قضبان الحديد تحول الى أشكال
مختلفة تحت ضربات المطرقة الثقيلة .. بعض الأشكال
تذكره بن أنس جهم في عالمه المعبث ، وبعضها الآخر
يجعله يعيش في محنة تقية تأخذ بكياته كله وهو يشهد
متلفذا ، متغنيا ، عذاب هؤلاء الذين أبعدوه عن آفاق
الناس ..

— طرق .. طرق .. طرق ..

هذا الشكل الأحب يشبه أبا عبد الحبيب الذي

يفتت الحجارة قرب مشروعات ساكن الجمعيات التعاونية
دون كلل . ودّ لو يفضه الى صدره المتقبض الهزل بعدا
إياه عن نزلات المطرقة الهاوية التي تذهب ، وتمجنه ،
تسده ، وتكوره .. لو يصنع شكل أبي عبده بنار قلبه،
ويحفظه الى الأبد في صندوق «العدة» المختص به في زاوية
الطلعة ، حيث يعلم الآن براحة فيها ووسعة وسكينة..
وفي قلبه آلاف الهواجس ، وفي عينه عشرات الأشكال ..
كم أنت عظيم ، ومحبوب يا أبا عبده !. تذكر كلماته
الحكيمة الجمهورية المصاحبة حلم الحصى : « انظروا يا ذا
العينين !. ليس لك الآن إلا ان تلك طريق القوة، والصحة،
والعادة . وتضرب الدنيا هكذا - ويهوي بكل قوتها
على حماة صلدة رصاصية ضخمة - وعندئذ تتج لك ما
ترغب به » . أجل ، هذا حق !..

— طرق .. طرق .. طرق ..

جنيه ضاق ، اسود . نطت أحاسيسه كالأفاعي ..
ثم ابتسم في بطنه ماكر . لمح معله بطرف مائل ، وهو

يحاول إخفاؤه مشاعره . هل يدرك مطه ما يرغو في ذهنه؟!
ابتسم في خبث . إنه يضربها ! في بداية الامر كاد يسمع
كركرتها إذ مطه يحالج القضيب المجبر في ثأنٍ ، فيتقلب
بين يديه المدربتين على غنج .. أم عماد صاحبة المحل
المتأجر منها تظهر حقيقة على السندان .. رأسها منتفخ
كالبالون بلا خطوط واضحة . جثتها تتكوم أمامه مثل
حجر غير مستن . مفلطح وعال .. لكان قائمتها (التختين)
القصيرتين ، ترتوان الى لبط بطنه .. هي تن ، وعظام
السدان القاسية تحتها أيضا .. اسقط مطرقتك الحكيمة
جيدا يا معلمي ! . سددها على رأسها ! . هنا على بطنها
ذي الطبقات ، تحت على رؤوس أصابعها المديبة .. اضرب
يا معلمي ؟ اضرب ! .

— طرق . طرق ..

في مرات عديدة ، كانت تزور المحل ، وما أن تبرز
ضاجة حتى يهدير سلامها بانحناءة لتهوي يديها الجبارتين
على قهقهة : « اذهب كلما رأيتني يا ذا العين هنا ، فلا أطيق

عينك رائعة الجبال » . كان يود أن يسألها الى أين ؟ . لكن
جفاف حلقه في تلك اللحظة ، وقرب أظافرها المفترسة من
وجهه ، كانا يمنعانها من الاعتراض .. فيرخي رأسه بعد
أن ينعمه معلمه بنظرة لاجبة متلساً الطريق مبتعداً شيئاً
فشيئاً عن الضحكات التي حولت المكان الى رعود .. تمنى
مرات لو يعود أدراجه .. لو يضعهما في حرج ما يفعلانه ،
لكن .. ماذا لو طرد ؟ .. ماذا لو قلمت له الثانية فعلاً ؟ ..
ضبطها على حين غرة ، وهي تدنس زاوية المظلة ، ويومها
آه ، اضرب يا معلمي ، اضرب ! ..

— طروق .. طروق .. طروق ..

وحرج حن ظرة الى معلمه . تعثرت عند زاوية فه
الناخرة .. العرق في جبينهما ينبوع سلسال .. والنار
مرآة سحرية أمام ناظره ..

« روحية » الصبية الراحمة ذات العينين الذابلتين
اللتين تحكيان أيامه السود .. ترفع رأسها ، اللحظة ، في

دلّ .. والجعد الهزبل المتروك يمدّه الى الشجرة عند
نهاية الحي حيث كان لقاؤها الأول .

... اقبل اليها يجذبه هواها يسهر الارض بقلميه
مائل الرأس .. وقف قريبا منها في بداية الأمر ، ثم قال
في خجل :

— مرحبا !..

لم تعرفه روحية اهتماما ، تابعت نكش التراب بعصاها،
ثم راقبت الخراف المتشرة الوادعة ، ومدّدت النظر الى
الحملان تعبت بقوائم النعاج ، كحالة اضاعة . في آخر
الأمر ، لم تستطع ان تتجاهله بعد ان صار فوق رأسها
تماما يعادتها :

انا اعسل عند الحداد . كل يوم اراك في الغدو والرواح
الدكان منزلي ايضا . نحن جيران ..

بصّمت روحية بعين كحلاوين واسمتين ، وبعين
طعولي ضيق ، وفم مثل الغاتم افتح بحباب على العبارة
التالية :

وماذا يعني هذا !

ابسم حسن ابتسامة صفراء . تلثم . وحاول ان
يطننها ، ويبدو وديعا امامها : لكن عدم ثقته بنفسه كان
يعطل دائما كل شيء :

لا شيء ! .. لا شيء .. اتسحين لي ان الالعاب هذا
الحل الجيل ! ..

(يقول حسن)

لا بأس !.. أمك به ان استطعت ..

(ترد روحية باقتضاب ، وتشغل للفور بردّ الشارد
من الأغنام الى القطيع ..) .

أما هو فقد لصقت عينه بها .. لاحظ بروز مؤخرتها
على الرغم من تحولها .. أعجبه قامتها الفارعة .. ، شعرها
الدامس المجدول جديدتين اثنتين .. ترافضان على ظهرها .
وهي تركض فتغريه بشاركتها في المطاردة . كم هي لذيدة !

كان قد قبض على الحل .. راح يتيله : ويد على صوفه القصير ، ينظر وجهه وحركات عينه . الحل يشغور جود الإفلات يهفو الى امه . دس أصابعه في فمه عابثاً ، ثم وضع ذراعيه تحت بطن الحل ورفعه عاليا الى فوق تاركاً قوائمه معلقة . يد أن الحل كان سريع الإفلات . خجل حسن من نفسه حين هزمه هذا المخلوق الضعيف سمى ورامه . راح يتخطى رؤوس الأغنام ، فلم يجد نفسه إلا مقلوباً على ظهره ، ين من القطة وهو يحاول الوقوف .. آلامه كلها ، وعذابات ساعات عمره تبخرت جيماً اذ تاهت الى اذنيه قهقهات روحية وهي تشهد من بعيد ضاحكة منه .. رأى نفسه يضحك ايضاً .. نسي اللحظات انه وحيد منذ أن فتح عينيه بل قل عينه الواحدة على الحياة . لقد ترسخ في أعماقه ، لوهلة أن هذه الضحكة - الحادثة خلقت ألفة حقيقة بينهما ، وأن روحية تشر بما يشعر به .. إنه لا ينسى ابداً ، كيف بقي يرح ، يشد اتباع روحية . ويستعجب ضحكها عليه بحركات اضافية ، وهو يتعد عنها مودعاً بإشارات لطيفة فرحة . هل يخيل اليه انها تحبه .. ولكن لأجل ماذا .. أحياناً كانت تطلق الضحكة

العاخبة ذاتها عند مرور اغنامها بجانب الحافوت ، وهو
مُسَرَّ عن ساعديه ليضع الحديد في برميل خاص ، وقد
التوى رأسه بصورة تمكنه من العمل بوجه ذي عينين .
كان يتمنى لو يحدثها مرة أخرى . كثيرا ما غسل رقبته
السوداء بالصابون المطيب . لبس ثياب « البجعة » ، ولحق
بها خطوات وهي راجعة عند الغروب ، وقد تدلت على
الزاوية اليسرى تماما ، عند العين اللينة جزازة من الشعر
الكثيف تعجبها عن الأقطار .. لكن أحدا من الناس لم
يلتفت إليه ، وإن التفت فبغربة من لبايه وتكوينه ،
فكيف الحال معها إذن !! ..

كم أحبك يا هذه النار ...

طرق .. طرق ..

ازفري با ناري .. وحولي الذي لا يتحول ! ..

لمت نظرائه في قلب النار تماما . توجهت في لهفة
الرضيع . يُرْهف السمع . روحه تناديه : أن أقبل ..
تمد يديها إليه والابتسامة تملأ خديها . تصال يا حنا
لا تخجل ! ..

رأسه بدا يتخلع من بين كفيه .. والنار فوهة بركان
ذات وجه اتوي حقيقي . أقبل ! .

نمق . مله : وعينه عنكبوتان تتيقظان في وجهه :
هه ! . ماذا تفعل . آه لو ألقيتك حقيقة في هذه النار :
وارحتي منك ! .. ثبت يدك .. ثبت رأسك ! .. طرق .
نرق . قبل كل شيء هذا لا يرضي عينك السامية . ماذا
في النار أيضا حتى تدد رأسك هكذا .. طرق .. طرق ..
وفكر حسن : سألقي بنفسي وأرتاح .

كانت النار في الوجاق موسيقى بدائية حزينة . يغيب
في صدرها نفس ملتهب متأوه .. يعلو أحياء كصدى نباح
الكلاب النيرة في الحي . ويهبط متضائلا في حدة ، كسواء
قط ضعيف جائع . وهو ، بين هذا أو ذاك ، يغيل إليه أنه يسمع
أصواتا عديدة كؤلولات العبالى ، تختلط في ذهنه ، وترغ
أحاسيه . انه يمس دائما بهذا الحيوان الأعشى : الذي
يخبط في أحشائه . ومدره . ودماغه في حق ، كلما اقترب .

من النار وأندلعت سحالي الألسنة الزرقاء مهومة ، تتعدي
عينه ، وثيئاً من إيمانه بحياته الكاسدة . شيء ، فطرح
جداً إلا يجد من يحبه .. إلا يحب أحد أحداً من الناس !!
أين تضي ؟ .. ومن أي ميل يسكنك أن تهب واقفاً تبدأ
من جديد .. حين يعاصره مطره بالقضبان الحديدية تلك
التي تنتظر العمل والخلق ، يودع أن يجري بها على قسمة
رأسه معاقباً ، كان يهرب من باب المحل كالطبي ، كيف
البال بلا حس حتى لو طعن بسكين . تنقله رجلاه إلى العراء
المباشر لحبه ، وثمة رغبة جامحة تخرج من قلبه ، ثم
ترسلها ، ليركض كالريح بعيداً بعيداً في خط مستقيم
يخترق العراء ، والبساتين الكثيفة ، والجبال حتى يجد ..
يجد ماذا ؟ ..

انت يا ذا المين الواحدة ! .. ألا تسع .. هات المطرقة
الكبرى ! رفت عينه الواحدة تلك ساخطة ..

طرق . طرق ..

كلما سمع هذه الكلمة ينطفئ شيء عظيم في داخله
يحجم الوجود ، كمصباح كهربائي وحيد في غرفة واحدة .

يردف معلمه :

ماذا في الأمر ! لا تفهم !

وضع المطرقة الكبرى أمام معلمه ، وأسقط عينه كالحرقة
عليه . زفر المعلم متضايقاً ، في الوقت ذاته ، أخذ شعور
متنام من الكره تجاه معلمه لم يعتد عليه .

طرق . طرق . أترى هذا المستقع الذي لاترغبه
عينك الواحدة أمام المحل ، لقد كان جدولاً فرائداً يؤمه
كل أبناء الحي صباح كل جمعة .

لقد كان ! . (يقول حسن)

وكانت بقربه شجرة كبيرة ، شجرة جوز تشبه أم عباد
في جمالها ، واكتظ ظلها ، وروعها . ذات ساق لا حد
لكالها ، وتكويره . وأغصان تخبيء في أعياها أجمل
الطيور وأكبرها . كانت هنا يا أحق .

أعرفت ! . طرق . في هذا المكان . . وأشار الى بالوعة
العانوت .

فكر حسن معلّمه ذلك الذي لا يطيب له الميئس الا
قرب مستنقه ، وتحت ظل شجرة موهومة . خلقه الله يحب
النظافة ، والأناقة ، والجمال ، وحظه ان يصل حداداً في
حيّ مريد . ثناء مائية بدأ يزحم زقاق الحانوت . يثير
غباراً رافحاً ضوؤه لهيب النار الخافق واختلط مع الدخان
المتصاعد . . هذا الحي الغريب البعيد ! . . تذكر جنباته .
واقذاره ، أصواته الغريبة في قلب الريح الناشئة عبر
الليالي . تذكر النحاس . والمبيّض . ، والبقال . .
تلعبت بنخريه رائحة الدجاج والأغنام ، والنساء أيضاً . .
تداخلت رائحة الغبار أكثر فأكثر وامتزجت مع دخان
المكان . معلّمه يصفر بلا كلل أو روية ، والنار عاكفة على
سريرها موجهة سبعت ألوان عجيبة أمام عينه ، ويده
نعب بالكير في آلية . شعر بغيق ، وجع ، في أحشائه ،
وهمّ أن يلقي برأسه في النار ويلحق بوالده الشيخ . . أن
يقضي على العين الأخرى . ارتجفت ظرائفه ، وكادت تكبو
مع رأسه . . بعب معلّمه صائحاً :

اتبه . اللهم اجعل هذا اليوم على خير ! . كنت تقتل
نفسك .

ثبت يدك . قلت : ثبت رأسك . هل ضايقتك هذا
الغبار وأنا أظن داخله بعينين اثنتين !. يا للرائحة الطيبة
المنعنة !.. نرووح منها نرووح .

(يشير المعلم ضاحكا في سخرية الى باب المحل ويدمدم
بأغنية رديئة) خيط أسود ترنح في عينه .. لم يشعر
بحاجة الى عينه الأخرى كما يرغب الآن . هاهي ذي روحية
الحية تبض عيناها السوداءوان العاليتان في ألقاه ..
تقبل نحوها وراء القطيع بثوبها الأسود النظيف في رشاقة
تبط عليه من خلال الغبار الكثيف كشبح مختصم .

يحاول الصانع حن أن يتكلم :
.. آ .. آ ..

يدركه المعلم على عجل . أنه يعرف أن شيئا غامضا
يربط بين روحية وصانعه ، وأنها تداوم على بيعه العليب
في بعض الأصבעه من اجل هذا الشيء ، لذلك فإن سعيه
لتמיד الحوار بينها مرتبط بهذه المعرفة ، ما دامت الفائدة
تعود اليه في نهاية الأمر .

— تناول منها سطل الحليب يا أعمى ، واشكرها — . يقول
المعلم — اعذريه . انه لا يفهم . اظري كيف يفتح فيه
بلا شيء . كمر اغ عنه القائمة تلك . يا للبلادة ! — يهر المعلم
رأبه — امسكه من يدها الجيلة : هاته عنك ...

عينه الواحدة هجمت أمام روحية بلا حراك . واعتلج
في صدره شعور بالألم . يشعر ان الاقتراب منها خطوة ،
يشبه من يعبر الى مجاز مستحيل . يحاول ان يتكلم بشيء ،
ان يحدثها عن لهيف . قلبه لا أمل . فهكة اعياء ثقيلة داهت ،
ومت مفاجئ ، فخرغر في اعصابه . وانسرفت قواه ...

تناول المعلم سطل الحليب شاكراً . وغابت روحية في
الدخان والغبار ... وعلى شفيتها ابتسامة صفراء ماحلة .
دائماً يشتهه معلمه أمامها ... دائماً يعمل على ان يسطر قدره
حتى يجعله ذروة من هواء ...

الأسى يتفجر دروباً حمراء عبر النار ...
نوافير معصورة بالزبد الدامي ، تتد من قلبه الى دماغه
ترك أثرها على فمه المطبق . حتى كأنه لا يتنفس ...

. انكرو المتعاطف لمعلمه سيل يجتاح سدود مامه ،
وعقله ، هذا الكرم ينشف دمه .

يشعل صوت معلمه في برود :

إيه يا ذا العين !. لقد بدأت عينك هذه تجلب الشفقة .

هذا شيء مفيد .. لكنها هي تشفق عليك فقط ، ولا
تظن أنك سيئها بتلك العين ابداً ...

يرفع الصانع حسن لمعلمه تلك العين في يومة .. كان
ذكرها مرة واحدة في اليوم يكفي لتعذيبه .. لماذا لا تلتما
يا ثور !.

يحس معلمه بثورة عاتية في محجرها .. تقلصات وجهه
غدت مخيفة .. كان المعلم يراه من خلال اللسان ، كائنا
غريباً ، شيئاً ما لا يختلف عن اللسان . يرمق عضلة في خده
أخذت ترتجف وتتفخ . ان شفتيه المفتوحين ابداً ، تحولتا
الى غلاف رقيق مضموم يمدد . لأول مرة يشعر بالرهبة

والخوف من صانعه .. يحول عينيه الآن . يتساءل في سره :
كيف لم يفكر أبداً بامتلاك صانعه مثل تلك السيطرة ...
تلف عينا المعلم في أرجاء المكان المتهدم الأسود
الجدران ، بعيداً عن وجه الصانع . تثبأن على المطرقة التي
تدق قضيب الحديد المحي ، تذكر كل زاوية منه ..
سقفه المتخرم الهلامي : الذي تدلى منه سحب من الهباب
الأشكال المربعة السوداء المتكئة على الجدران المكسرة
من قديم .. هذا ثعبان لثيم يمد لسانه ينذر بالانقراض .
وهذه وجوه غريبة تبع من زاوية جدار المحل في الصدر
تركض سرعة على سلة هضاب سامقة ووطية ..
يسمع صراخها اليوم في أذنيه كأنه تحت وطأة كابوس .
صورة عتوب شميم في الجدار المقابل يزحف راتماً في القاع .
على الجدار الآخر قريباً من باب المحل . رسم بأصبعه
صورة مشوهة لصانع مشوه . صورة وجه لا يعمل الأينا
واحدة مطرودة ، تطلت من مكانها بخطوط اضافية أوسع
حتى كادت تملأ الوجه كله . كل شيء في مكانه . هذه
الأدوات هنا ، تلك هناك .. لم يتغير شيء اللحظة إلا

أفكاره . وهذا الآدمي أمامه : يكشف فجأة انه يعبه جداً ،
ويحب عنه أيضاً . ولم يكن موجوداً في أي وقت في نفسه ،
كما يتجلى الآن يَحْسِبُ له حساباً يتضح على معيائه ويهز
اعصابه نقط المطرقة من يد المعلم على الأرض . صوتها
أحدث وخزاً عيقاً في كيانه كله .. تمنى أن صالعه لم يلحظ
اضطرابه وغيابه . وفكر : لقد فوت عليه بما فيه الكفاية ..
سأحاول أن أعرضه .. لكن كيف أستطيع أن أصنع منه
رجلاً ..

الصانع حين قرب النار منهم مدد . يصرخ المعلم
على ضعف هذه المرة :

مالك اليوم يا ابني تبدو هكذا ! ثبت يدك جيداً
بالمقصد . وتابع بالقضيب حركة المطرقة ..

يقول المعلم ذلك موجهاً . يحرك النار قليلاً ، ثم ينحني
لالتقاط المطرقة من بين قدميه . تبسم وورود دامية ساخنة ،
حيث ، على شفتي الصانع الجافتين . يتشق بلا تلكؤ

رجولته في جنون • يقبض على طرف القضيب الحديدي
البارد ، وينصبه به في قوة ألف ذراع ، على رأس المعلم
• ١٥١ •

كالت آهة ساخنة ، مجعدة ، مطوطة ، فشئت خلف
السندان • ودم مظلم حار ودسم اخذ يرح في شعر المعلم
المسحت .. تخلخل رأسه قليلا قليلا ، ثم يتكوم على أنه
على الحديد المتكوم ..

العين الواحدة مشكولة الجفن ، والاخرى تكاد تكون
مفتوحة • والنار في الوجاق تهبط رويدا رويدا ، تتكشف
الجمرات البيض ، رمادية اول الامر ، ثم خفراء بلا نطاق •

تناقل رجلا الصانع • ويد الكير تنوب الى رشدها في
بطء • يحمل رجله بعد أن تمطتا الى الداخل • يثني
قضيب الحديد الى قسمين ، ثم يضعه في صندوق العدة مع
الاشكال الاخرى • يداوم بصره في تلك الاشكال قليلا ،
ثم يطلق غطاءه الخشبي ويجلس عليه يلتقط أنفاسه • يدفن
رأسه بين يديه • سوف يكتشفون عما قرب أمر القتل ،
ذلك الثور الفليظ • سينظر الناس إليّ منعورين ، حينما

سقبض علي والحديد يحجز يديّ .. سالتذ في رؤية رعب
الناس المحتشدين علي الباب ، يشيرون إليّ في حذر ،
والأ أمرّ ، بينهم ، رافع الرأس ، واضح الجبين . وقد
نبت لي ، إذ ألمح روحية بين الجموع ، في الزاوية اليسرى
تماماً ، عين أخرى .



إيقاعة القطار الساكن

الشرفة في البناء الجديد مكونة بالفرح . معبأة
بالاجساد والمطور وصياح الاطفال والعيون النائمة
الاهس عائمة على روائح القهوة العربية في العيد ، وهي
تعاقي امامها ما تبقى من أرض سكة حديد حمص بعد ان
التهم بعضها الصرمان .

رأيت أخي لا يشعر بما حوله في الشرفة . ما يراه في
المحطة يمتلك عليه قه . . لم أرغب وسط هذا ان
لحتفن الا بدأ يتقد في داخلي . . المحه يحشوشب في عيني
أخي غلالة خضراء رمادية وهو يتابع الخطوط الحديدية الى
مداها عبر الافق .

دروب المحطة كساها الحشيش والنبات الشوكي وبقع
من الزيت ، منذ زمن لم تضربها أقدام المافرين الماعدين
أو النازلين . الخطوط الحديدية تركض لا تلوي على شي ،

بيناً أو ياراً .. تحرك اعناقنا نحو شيء : لا نستطيع
الهروب منه وهو يتسع في كل ما تقع عليه أعيننا .
مستكناً بإيقاعه غدوت ..

هزك أخي قبالي شجرة الذكريات كأنه عرف ما تخبئ
العيان ، عندما انزل صوتي بين الصخب واللعو مغتصلاً
بأجنحة مهيضة قائلاً :

— أتعرف يا أخي ! ! .. فتقد تلك الأيام ! .

فكرت : « وهل يستطيع الإنسان إلا أن يكون فاقداً
أو مفقوداً .. ولكن .. » .

أحاول أن أعطي بكلمة ما . بحث الحروف بجفاف
رقصي .

ينقذني صوت أخي وهو يضيف :

— أتصدق يا وليد ! ! . مشهد هذه القطارات ،
أكثر إضاءة من غابات العرلق ، وأجمل عندي من غومة
دمشق ... « اعتراف » وددت لو أخبرتك به قبل . لكل
منا أشجاره . . .

أجاهد أن أرفع صوتي مؤكداً على فقدان إيماننا
القارطة :

— كلما مروا بهذه المحطة ، تلبّست خلف أسلاكها
الشائكة ، الاحق بلهفة ما تبقى فيها من حركة : وانعس
لبضها . في صغري رست هذه القطارات على الورق
باستمرار . كنت أحلم بالسفر بها . وكان أبوك يتم
قائلاً : « لماذا لا ترسني ! » . أين السائق يا وليد ! » .

تبدى القطارات ، اللحظة ، أمام ناظرينا حيواناتٍ هائلة
تركن إلى الهدوء والسكينة والراحة . . قطعاناً مئة
متباعدة هنا وهناك . القاطرات منكفة إلى الذكرى . .
جلدها الأسود متشقّق تكس عليه الغبار والرماد المتوهج
تحت أشعة الشمس . مناخيرها مدودة بالصم والزيت
ورذاذ الصم والتراب .

ينفخ القلب إلى الحديد الذي أحب . تفجّج مطلقته
في داخلي ، ها هي ذي الأبواب مغلقة على هبات ومباهج

لم يف أثرها • الأشجار جانب السور المتهدم محبولة
بالنفر تزفر روائح الاخشاب والصم الحجري وتمزق
باوراقها أصوات الذين مضوا ...

تكبر الأشياء وهي تبعد ، وتفيض فيك الدهشة حين
تترك أن الاجزاء الصغيرة المتفككة المتناثرة في كيانك •
تشكل علما كاملا ، تنسب اليه كلما أمنت هاربا منه أو
نسيته عبر تكاليف الحياة وتعاقب الليالي •

ما من شيء ينتهي أبدا • الذي مضى نلقه بأعناقنا ،
وتابع ... دائما يبدو ...

يقول أخى :

— لم يبق في المحطة إلا قطار بضائع متواضع • يأتي
الى الأحياء المجاورة صوته بين حين وآخر • حديث دائر
منذ زمن عن النائها •

لم يكمل أخى كلامه حتى تاهت الى أسماعنا صفارات
قطار قادم .. اخترقت آذاننا بقوة عندما مرق قذءا منا •
تبه كل من في الشرفة .. الأشجار تتفص • وأخى
يألني :

— هل تذكر أباك جيداً ؟ كنت صغيراً . قد تذكر بعض أعماله وحركاته .

أخيه قائلاً :

— أذكر قسامته ببلقة . ويخطر في بالي ، اللعنة ، أشياء كثيرة ما يربطنا به في هذه اللحظة .

يضيف أخيه متأثراً :

— أتعرف يا وليد ؟ أبوك شقي من أجلنا كثيراً ، طبق الطعام من القش كان يكبر يوماً بعد يوم وهو يكافح . الابتسامة لم تكن لتفارق شفيه ، لكنها تالتق في سحر عندما يصعد القاطرة . القوة وحدها كنت تجددها في عينه الواسعتين، كنا تعلق بشيابه عند عودته، ونطالبه بالهدايا . وفي المساء يجلس ويعكي لنا قصة الفرس . نيس لديه الكثير من المال ليقدمه لنا ، أجره بأئس مثل كل العمال أيام الانتداب الفرنسي ، لكن كنا نملك معه الأحلام .

شيء مؤسف ألا نكون معه في تلك الأيام كباراً

قادرين .. أو لا يكون معنا الآن .. تغيرت أشياء
كثيرة .. ولكن ..

أنعم النظر في وجه أخي ، أكاد أرفع صوتي وأنا أحادث
نفسى بحرارة :

« لكنه الآن معنا . أجده أيضا في المستقبل . كنا
معاً ، نحن فيه وهو فينا .. احتل آلامنا ، وبقى نحمل
آلامه .. وقد نمطيه الفرح بشي . حين يبدأ الإنسان هنا
أو هناك ، لن ينتهي . لم يمض أحد أبداً في مكان . بل
يعتث كل يوم في العالم . بداية أيّ منا ونهايته توأمان » .
في سواد عيني أخي يلعب احساس متوهج . لكان
شيئاً مدمراً ومفئداً ما يتأهب فيها كالبراكين . لكأنهما
هيني رسام مثل الأعماق ، متوتر النفس ، يوالي تشكيل
لوحة دون أن يعيب للمعاينة حساباً .

أخي يتابع :

— مرت بنا أيام شتاء قاسية في الماضي . كانت الثلوج
تتراكم في حصص أحيانا إلى الطوح . وكان على أهلك
أن يواجه الخطر والمصائب من أجل اللقمة . يستيقظ

وينهض في عزيمة فيا نستع بدفء الفراش . تجلس
أملك جانبه وهو يشرب الشاي الاسود بصوت مسوع ،
تعذره ، تدعو له ، وتثيحه الى الباب . كان صوت حذاءه
الثقل يمتزج مع صوت المطر الساقط بشدة . منذ ان
يغارقنا كانت تبدى في اساعتنا صفارات القطار الهادر .
نراه على البعد ينفذ خطاه الواسعة نحو لقطارات التي
تنتظره . يطمح في ان يقبض بسرعة على لفحة قيادتها
والطواف بها . يخرج رأسه من نافذة القاطرة الصاهلة
وهي تعدو ، فيغسل رأسه بريح المراعي ، ثم يثمت الى
ايقاع الموقد كم لعبت في هذه المقطورات ! كم صحبتك معي
الى المحطة ، وجريتنا خلف قطار المسافرين ، نابق السكة،
ونظوح لوجه أليك المثل بعد أن طال انتظارنا له . عندما
يتوقف القطار عن الحركة ، يضا أبوك بعينه وقلبه أولا ،
ثم يمد يدا الى الصغير الراكض المتحمس يتسله الى الصدر،
ويبرقنا بالقبل . كانت المقطورات تودع المسافرين فرحين
متضامين يحملون أمتعتهم ويضحكون ، تعبق معهم من
الداخل روائح الدفء والاوقات الجميلة . ثم تندفع الى
اللب في الداخل ، تجلس في المقاعد الفارغة ، وتبقى

الرفوف ثم تنطلق في نشاط وزهو الى القاطرة التي لم يده
لبض قلبها عن الخضقان بعد ...

ابتي : « هذا » تلالا التلهف والبراعة في محجرها ،
ثم يعقب صوتها بعبء يتنا قائلة :

— متى لسا فر يا أبي بالقطار ؟ ألم تعدني دائما ؟ ! .
يتسم أخي لها ابتسامة تواب فيها قلبه ، ثم أجيبها
بكلمات تلمتها .

يتنفس أخي بعقب ويقول :

ما أزال أذكر عمله في القطار قبل موعد السفر . كان
يعبه الجميع ، يتبادل معهم السلام الحار ، والنكات .
أما : « حال الخط » فكأنوا يملكون بنا أحيانا على عربة
خاصة تدفع بالأيدي يبيعون مطلقين ثم يغيرون بعيدا .
أترك أباك أحيانا الى قطار ساكن ، ثم أعود اليه ، يقترب
مني وخرقة يمسح بها يديه مائلا :

— هل لمت جيدا ؟ هل لعبت في القطار ؟ اما حطت
فيما ؟ ! .

وعندما يطمئن الى الاجابة ، يادرني قائلا :

— جاء وقت الروحة . هيا .

يقبض على يدي بحرص . تقطع سكة بعد اخرى . في
حين قلبي مُحَلَّقٌ بكل من يعمل في المحطة ، وبالقطارات
الساحرة ، وبوعد السفر فيها .

يزهر مشهد القطارات الساكنة امامنا بالحب . خلال
الصمت كنا نترق السج الى استرجاعات غناء ، المعجلات
تكاد تتحرك عيون أخي تحت الخطو في درب الاشواق،
أما ابنتي : « شذا » فكانت تراقبنا في ثوبة ، وتحاول أن
تفهم شيئا مما نسمع .

تخطر في بالي مراحل العمر البعيدة والقرية . أخطب
أخي قائلا :

— من كان يظن أنك ستسكن هنا على بعد رمية حجر
من المحطة . كنا نعيش بعيدا في الشرق . كثيرا ما حلمت
بذلك .

يقول أخي :

— ستكون لك فرصة . في كل صباح اصحو على هذا
المشهد ، أرى الضوء يضر ضي ثم اخترق المحطة في طريقي
الى المل : اعبر ، ابقاعة القطارات ورائحة السحوم
والدخان والزيت المتكلسة في جيوبي ومدري ومخترنات
جواني .. اوزعها على الصغار لدى عودتي .. خذوا:
هذا من رائحة جدكم ! .

اقول متحررا :

— العمر يولتي يا اخي . رقعة المر ضاقت . كانت
رحلتنا صعبة منذ موت ابيك كلما كبرنا غدت صورة
الطفولة اوضح .. اكر الما .. او اكر بهجة ..

يبيل الى الامام ويشير بذرعه يرسم نصف دائرة
متعة بدأت وانتهت بالشرفة وهو يضيف :

— كان ابوك ينقل الينا كل ما يجري على هذه الارض
امامك . ان بعض هذه الخطوط الحديدية تمتد باتجاه
جراحاتنا الداميات .

لقد قتلتك هذه الخطوط ، كان شهيدها وهو محدود
الهما ..

الطقات سمته وتركنا في المتعة لايام عمية ..

سيرة الموت قطعت كل حديث . جفت الرغبة لدى كل
منا في الكلام . الموت فاصل تنهي به الحياة ، وقد كان
حديثنا عن الحياة ، فلم يبق لدينا شيء لنقرله عنه .

اتجهت الى التي قد نسيت الماضي في شوارع مدينة
مزدهجة أثناء الدراسة بعيدا عن حصص .. في أركان لا
تعرف الاستقرار .. استمر هذا النيان مدة .. كنت
أكره الماضي والحاضر وأتطرق بالمستقبل .. وحلها صفارات
القطار في كل مكان أنزل فيه ، كانت تعيد إليّ الثقة بأنني
أتذكر أبي .. كانت أعماقي ترفض باصرار التفكير في
نهاية الحبيبة ، أو في حقيقة موته .. خيل إليّ عند عودتي
الى مدينتي ، أنه ما يزال يعمل في المحطة ، لا بد أن أجده
في مكان ما فيها ، بل لقد خيل إليّ أكر من مرة ألي رأته
فلا كذا مررت مصادفة بالمحطة .. أو كنت أسير في
الطرق . كنت صغيرا عند موته . لم أشبع منه . اعتقلت

دائماً أن غيب مؤقتة أو أن املا ما سوف يملأ فراغ
مكانه .

أعود الى أخي . كان مطرق الرأس . . كيف يبدو اذا
تذكرنا ! . . أرشف ثالة قهوتي . . امضغ أدخنة لقافتي
مترجبة ببطور النوة . ينبثق في قضي إحساس طافح
بالحياة . . تنتهي الحياة في مكان ما . . في الوقت الذي
تبدا في مكان آخر . . صراخ الاولاد وضجيج المحتشدن
في الشرفة أعاد إلي الثقة بالحياة . إن ممارسة حياتنا كفاح
حقيقي ضد الموت . شيء ينطعم في داخلي حين لا أعود
أشئ ، أعمل ، أحل أعقاب الماء ، أتلطف الى رؤية
الأطفال والكتاب والشمس والأزهار والماء . . أمتشعر
الحياة المتواصلة بسواعد العمال الغشنة والأفكار النيرة .
احتجت الطفلة : « شذا » على الصمت مناشدة :
الا تأخذني منك الى المحطة يا أبي ! ! . .

كان الحاج ابنتي قوما ، حاراً . . يمثل دغيتي .
هل لفتاح الى أن يأخذنا أحد مع الى مكان ! ! . .
هل لرجب لي أن نكون مع أحد في لحظة ما في

مكان ١٩ .. حتى لنبدو مستعدين دون رافة ، لان ندفع
ثمن ذلك حياتنا .. لسوف نتظر دائما أن يأتي إلينا احد
أو نأتي الى احد دون أن نضع في حسابنا في أحيان كثيرة
حقيقة الموت أو الحياة ! .

لايني أخي بتأمل كل شيء في المحطة بتعبر قسي حاد ،
وبكون من يستمع الى صوت قادم اليه يريد أن يتيه ..
أما أنا ، فأكاد ألمح الحياة عادت الى أبي .. هنالك
خلال أطباق الاشواك النابتة المتكاثرة من زمن فوق عجلات
القطار .. على البعد أراه نقطة في هذا المستطيل من الأرض
يتفقد شيئا تحت المركبات المغلوبة على أمرها .
قد يهيء لنا أبي بعد ذلك شيئا .. أو ينتظر أن يهيء له
شيئا ، ويأتي ..

قد يقدم الآن ملأ يهدوء .. ابتسامته تملأ حياتنا
مرة أخرى .. تشده روائح القهوة العربية في العيد شديدا
الى الأحياء ..

يرتشف فنجانه وهو واقف عنده شغل دائم .. يألنا

عن أحوالنا وسأله عن غيته .. ثم يعود .. الى الحركة
الدائبة .. حركة الحياة المستمرة ..
ما من شيء ينتهي أبدا .. الذي مضى نلقه بأعناقنا ..
وتتابع .. تبادل معه حبة الموت للحياة . ودائما يدور
بشكل ما ...
سألت الطفلة : « هل تنتظرون شيئا ؟ » .



التمهيد

البيان :

أخيرا ، بعد ملاحقة وتعربات للشرطة الملكية دامت ثلاث سنوات بليا لها تم القبض على فرد واحد من أفراد عصابة القتل المجرمين الخطافين بمساعدة الأمن العام الوطني الباسل . ذلك الذي يجب أن يفخر به كل ملوكه . لقد كانت مجموعة من الاطفال الابرياء ضحية وحشية هذه العصابة التي أقدمت على القتل بطرق حيوانية عندما رفض آباؤهم دفع الفدية المطلوبة . هذا ، وإن الشرطة اكتشفت أيضا ، وجود عصابة أخرى تقوم بالفعل فـه يتركز نشاطها في العاصمة الناطقة بالضاد - سر من رأى - كما لوحظ أنه توجد عصابة أخرى ثالثة تمارس مثل هذا النشاط الإجرامي في مدينة : « الحاكم بأمره » الواحد والعشرين بعد المليون . الشيء الذي يشكل خطرا جسيما على سبعة

ببلادنا الطيبة ، البجيلة بأعين الاجانب الكرام . ويمطسي
صورة غير مشرفة عن ملكة السلطان الحيدة . كما ينفر
هؤلاء الاعزاء الذين يشعرون ، عندنا ، بأنهم في ديارهم ،
من التقاطر الينا باحثين عن قوة الاحساس ، والشس،
ولعبة الاشياء ، وكهانات الاديان بأنواعها واللغات جيما .
إن الشرطة تسهر على العباد ، والممالك جيدا تلمن بغصة
العائلات المرموقة الاجنية واللاحقة التي تكون راسال
الملكة نصرها الله بأنها لن تلخر وسعا في حمايتها ،
واستقرارها ، والضرب يد من حديد على كل من تسول
له فيه الاضرار باعتبار المقاييس المتوارثة والتعاش
الامثل العتيق .

— التوقيع —

وزارة الأرسواط

ولصور السلطان التتم

الطلب بطر بطاب الارتفاع :

في حذر وقف يرهة بعزاء باب الدكان الذي يشبه
شريط ممى جائم . الوقت غسق ، والبرد اللاسع اكتر

ما يخفن الظلام في الليل . دخل ويداه في جيبي
« سترته » البالية البنية كسوط قديم . كان شاباً في مقبل
العصر . دائماً يتم اتهامه صفراء قوية تين عن أسنان
ثرم معطوبة بإدمان التدخين . قيمه في الأعلى لم يعد
يخفي ثوبه . بنظائونه قدم في الصناديق الأمريكية
المختنقة بملايس متهلكة تعلم الرقص أو القتل . زرقته
استرق خلف بياض القط الذي يحف فيه . رفته
الجلدية في صورة وردة حمراء ارتمت فوق إحدى ركبتيه .
عندما وصل في ثورة إلى الحاجز الخشبي الذي يقف بائع
خلفه . لم يتبه إليه أحد أول الأمر . . جانب الزبائن .
حلق فيهم قليلاً . أطلق يده اليمنى من جيب سترته .
تفحصها من الثلج . الآن ، يلحظه « عطية » . يتم له
بدهشة غامضة . يعاتبه بكلمات مثثة سريعة . ويرحب
بعينين براقين . الشاب سمع اتهامه الصفراء . يشير
إحبيه إلى لفافة تبغ . تتقدم إليه وتشعل عن طيب خاطر .
بعض الحشرات الفقية السوداء تطير فوق رأسها ، بلا
يكشفها بجلاء ، الدخان الأبيض المتصاعد في قبة حلقة
الدكان الفائرة . « عطية سلمون » بائع شاب دمث متفهم .

كثيرا ما يجتمع عنده الناس في دكانه المتواضع . يتحادثون في أمور الواقع ومشكلاته المتفاقمة . ينصت اليهم بجديّة . يشاركهم هورهم ، وسخطهم واحلامهم بالشفاء والأعين والصدر ، حالما يتفرغ من زبائنه في أوقات كاسدة . ولا يعدم محاورات قصيرة ، أيضا ، مع زبائن عجولين يستطلع فيها أمورا معينة خاصة وعامة . يحسن الإنصات الى كلام من يزوره في دكانه متين وشبانا ، دون أن تشغله خدمة زبائنه عن التطبيق المناسب حال مغالطة ما . إنه يحبهم جميعا في هذا الحي المتلىء بالكتل البشرية الكادحة . بضاعته من المواد الأساسية . إنه يعرف أنهم يأكلون جيّدا من طحين أسود واحد لديه .

ينفض . « علية سلون » اللحظة بديه كأنه يصفق . يلمح بحرارة على الشاب الذي يعده من خلصائه . يأل وهو ينحني على المنعة الخشبية العالية متكئا على ساعديه المتجاورين الأشعثين .

— « أين كنت ؟ طالت غيبتك يا قادر ! »

— « كنت مسجونا » .

— « أعرف شيئا من ذلك يا قادر . ولكن .. كل هذه
المدة قضيتها في السجن !؟ » .

— نعم .

— لأي شيء . اعتقد أنها التهم نفسها الموجهة الى بنية
رفاقتك . لقد كثر المعتقلون . والمفتودون حتى أننا لا
نستطيع ملاحقة الاخبار كلها أو الاحساس بأي اطمئنان
كان . ثمة شيء يدبر لنا في الخفاء بدأ يتوضح كما دبر
لبعض الأحياء الأخرى بأساليب متنوعة .

— « هذا صحيح » قال الشاب مؤكداً . يلتفت الى
الخلف في توجس حاد سريع . على بعد خطوات يجلس
رجل فوق أكياس من البقول الجافة مرمية لدى المدخل
الذي يَكل عتبة بوابة تطول عدة أمتار الى العمق . تكاد
تكون معتمة في الوسط . ضوء متأرجح يندلق بالتدرج
على العتبة ، كزيت مغشوش ملوث ، كلما اسوده الليل ،
يسل من مصابيح متبقية متباعدة في الدرب المركزي في
حي « حدبة الجبل » ، الذي تلتحق به في ضايته في العراء
مدينة من الأكواخ حيث يسكن عطية وقادر . ضوء آخر

منكب فوق رأس قادر ، يصدر عن مصباح ضئيل عال في
القف يبدو لسانه المحمر داخل الزجاجاة الصفراء ، كهم
سكير يتقيا . المكان كله يتخذ صورة كهف بدائي ،
تراقص فيه الأشباح والظلال « رأرا قادر حدقيه يتحفص
الرجل عند بقعة الضوء الزتية . لأك لسانه في فمه قليلا ،
وانقل برأيه نحو صاحب الدكان الذي بدوره قائلا في
فهم وهو يتبادل ابتسامة ودمع الرجل في المخل :

— « لا تخش شيئا . الأخ من بلد عربي شقيق .
يعرف كل ما يجري . واكتوى . إنه منذ سنوات في —
سر من رأى — . من حي مجاور ، من بضاعتنا .

إذ ذاك ، لم يشب قادر أن شرح قضية ، يود هو ،
بداعة ، أن يحلل ملبساتها . يقول :

— أنت تعرفهم يا عطية . دائما ، يمسون في الدروب
والصوارع . رحنا نطاني عصف دوريات إضافية . كل
تجمع يزيد على الثلاثة في حيننا وفي الأحياء المجاورة :
« المقابر ، درب الل ، الصمارة ، العظام ، الليل ،
و . . . و . . . » . يعتبر مريا . مثل موت قنر تنقض عليهم

سيارة الدورية : وفي مركز الشرطة تبذل أجادهم بمرق
الانتظار والعذر . ثمة سين وجيم بإدانة مسبقة ملفومة .
واحدنا يبرق من مدرسته تنزع عنه جلدة رأسه . آخر
يقطع عن مورد رزقه وعياله . آخر يسقط في زخانة عوض
أن ينجح في طلب دروس الجامعة متهما بقله الأدب ،
والتعقيد ، وعدم اتكائه النظرات . شاعر ثقفته قافلة
القرصنة بساعدة مخبر في المقهى يجلس فيه ، رآه مع
شكته يقرأ عليهم قصيدة لم يعرف حروفها من برك الخمر
وملال الحشيش وسجاييا السلطان المعز بيغه . رأيتهم:
جروه من الكتفين ، اقتضى الفك رأسه . بكث أذناه
دما حتى أخرجوا من بالوعة فمه شلال الرفض . وآخر
وآخر .. قد يفرج عن بعض هؤلاء بحسب الأحوال بعد
مدد قد تطول الى سنوات في حين يبقى آخرون في حكم
المفقودين .. وهكذا » .

يقاطعه عطية ، وإيادات التامل والالقباض في الوجه :

— « إذا ، لا بد أنهم قد عذبوك كثيرا بعد أن قبضوا

عليك ، كيف فعلوا ؟ »

— « المرة كنت وحيدا استد الى سور الثانوية ،
ادخن عندما انقذف نحوي ثلاثة أجساد كالكرات
البلاستيكية الزرقاء ، الساعة • قور بطني واحد بسده ،
يحذرنني — على طريقة الكاوبوي — من القيام بأية نامة •
الآخران عكسا يدي الى الخلف بقاوة • صرخت • وأنا
أبرير بكلمات لا تفني شيئا الا التعبير عن التعاطات •
اشتعلت في مغاملي فجأة • تعاثيت • في أول الأمر •
النظر في وجوههم • وقد صدمتني تجربة رؤية المروق في
اشباهها مرات سابقة • بل اتجهت بعيني الى شيء معلق
متذبذب مجسد لآلبي الذي يزداد بالضغط والنسر •
نقوست الى الأمام • أو قل انطويت حتى راح وجهي يلعب
أقدامهم • كل ذلك في رمشة عين ضوئية لينة جافية فوق •
ما برز من عظام الكتفين المقلوبين صقت على أثرها
حنجرتي • وجهي اتفخ بعدما قاسمت • قدم غليظة هوت
على قدمي • حصرتني وأنا أحاول الإقلاات انكر صوت
في أذني :

— لا ينفع معهم إلا الضرب •

آخر حكم على أمثالي بالموت كعل نهائي حاسم .
وجدت كلماتي :

— ماذا فعلنا . ماذا فعلت . قولوا لي . لم أفعل شيئاً .
بدأت أرفع رأسي . فسطت شيئاً ما سواعدهم .
أنت تعرف : الثيران الهائجة لا تتخاذل لكن تترث قليلاً .
سائل أسود انصب على الرؤوس المتداخلة وأنا ألرب
إلى الضوء شيئاً فشيئاً . لم أتعرف برجال هذه الدورية
من قبل . حركت عنقي . نقاط رمادية وحسراء كانت تهتز
وتتلامح وتنهض فجأة ثم تختفي على طول الشارع المظلل
في الأفق فكان لدي اعتقاد بأنه مهجور من كل شيء —
عدانا . تطاير لعاب متناثر :

— اسك يا قدر .

— قادر أبو جمعة .

جفظ صوته : — كذاب . والله ، كذاب .

أحد الشرطين اللذين ما يزالان يقبضان على ذراعي
من الجانبين ، أكد لي ولقائد الدورية أمامي ناهراً ، كأنه
يتشفى من ثأر قديم :

— بل أنت هو . رأيتك في مدر المظاهرة . أنا من
الشرطة التي كانت تحرس مبنى الثانوية في حيكم الكريه
قبل أن تبدووا اضرابكم ، و ترمونا بالحجارة والزجاجات
الوصقة . أعرفكم . لن يتلعمكم الأرض . اليوم حابكم .
كنتم تصايحون بأسائلكم . أنت أشدهم شراسة في
هجومك . سمعت كثيرين يصرخون : « تيمور » .. ولم
نعدم من دنا عليك من المقبوض عليهم من التلاميذ . قالوا :
« إنك أنت : — تيمور عمر — » . لا بد أن تدلنا على
البقية . نصطادكم جميعا ولو طرتم .. ولو ...

كان وجه القائد يحكي اندهاشا وقلقا لغياب فكرة
أساية عن ذهنه المتوقد التقطها قائلا وهو يسحبني نحو
ناصية الشارع بعد أن أغلق فم الشرطي بإشارة حازمة : —

— بطاقتك . أين هي ؟

— ما عندي .

— ولماذا ؟

— لم أصل السن القانونية بعد . بقي شهران .

— ما شاء الله • ما شاء الله !! —

قائد الدورية قال العبارة الأخيرة مثل بنمير تشي •
واردف في حق :

— أين تكن ؟

— بعيداً ، هناك ، في الطرف الغربي من الحي • في
هاتيك « البراكات » من التلك التي تلمع في الخلاء عبر
الأفق • مجرد أستار كامنة لستر الموراث والسلام • أما
أبي فليس هنا : وامي « غالة » تخدم عند فرنسي •
اسألوا من شتم من أهل الحي !

رائحة برال وتبغ أسود وحشيش انطلقت وهشتمثل
نافورة غالت وجهي ، واخترقت خياشي ، حالما اقترب
الرجل مني متعافياً • لا أدري ماذا سيفعل الآن وهو
يزفر • الوجه الرجيم بدء منافذ الحياة في رثي • • كزّ
على شفة راجفة ، في حين انقذف من النصف الآخر إصرار
وقح لا رجعة فيه :

— كذاب • وألف كذاب •

نحامت عابثاً .

.. حسن . إذا قالت تعرف اسمي .

شقء عليه استهتاري . معصني بقوة . ملا جمع يده
بفرتي . حاول اقتلاعها وأنا اتلوى مجرة بين الشرطين .
بصق وقال :

— ستندم . كلكم هكذا . ثم تقرون بكل شيء .
هذا لإطالة عذابنا فقط . اللعنة عليكم جميعاً .. اللعنة ..

حد فرز « الحقوبي » ، أمام بقالية « زاهي أبو فريد »
انجوني . كان الزاهي يقنفذ في العمق المعتم كعادته .
انسحب بدءاً القائد مهرولا الى الخارج . عيناه زائفتان ،
تهاز . لم يتجاهلني . عينا القائد تحولتا الى مصباحين
كاشفين ، يعرضني بهما الآن سائلا :

— تعرفه ؟

كانوا قد أعادوا صياغتي من جديد . ومع ذلك قال :

« زاهي » .

— إي سيدي . ابن الهي .

— أعرف ذاك • اسمه ؟

— قادر • سيدي • قادر أبو جمعة • سيدي • فقير

على باب الله سيدي •

ارتعش القائد ، وبخه وهو يصنع الدهشة بعاجيه :

— من سالك يا رجل عن فقره وغناه • من يصدع

رؤوسنا غير هؤلاء •

— عفوا سيدي • أمرك سيدي •

— أنت محايه • قل !•

— لا • لكن ، أقصد ••

قطعت اضطرابه • قلت كمن يريد أن ينهي مشكلة لم

تعد بحاجة الى بحث :

— والله العظيم أنا قادر أبو جمعة •

حاولت أن اسمعه صوتي بقوة فلم يلتفت إليّ • لم

استكن • صنعت صوتاً مناسباً ذا دلالة :

— والله ، أنا ؟• أنا !•

شرطي ركمني برجله السينة . اتفخ بياض عينيه وهو
يجرني لأست . القائد منكس الرأس يبدو أنه في ورطة ،
وهو ينقل بصره بيني وبين زاهي وبين زميله . ثمة طريدة
هامة تجسدت فيّ ، يريد أن يقدم حيداً إلى رؤوسائه ،
فكيف يخطي سبلي بسهولة . لا تهم الأساء . إني
مناب جداً . عيانه مخيفتان تركزان فيّ . ألسنة نيران
منها اندلعت في صوته المبصوم بالنباح :
— غلوه . واطرحوه في البيرة .

ثم قذف بنفسه الى الأمام في مراة . تحفز الشرطيان
وراءه كالمخبولين لتنفيذ الأمر . وعندما طوّح بي أحدهما
مكثراً ، كانت الساء تقاطع هراوات ...

بينما تجمع الأمواج

وينظر الوادي بنظري السيل .

الشاب ذو الشرة البنية ، يختلج ، مثل أبواب التلك
المشترقة التي تمر بها مدن الصفيح في مدينته « سر من
رأى » في وجه الريح . يضرب مصفاة لغافة التبغ المحترقة
منذ زمن بين أصابعه . يتحسس ساعديه . يطلب أخرى

بشنتيه المقفرتين . علىه سلون يسجل في تقديم اخرى ،
ووجهه يوحى بسق إحساس منكر . فيه متزقة تعاني
لحظات ضعف وهوان ، في الوقت الذي تعمق فيه قوة
على المضاضة . تعلم دائما كيف يستعملها ويتواصل معها .
منذ سنوات أنقذها كما فعل غيره من كفنها عبر الألم
والقمع ، يتوصل اليها كلما تعمقت صورة الحاضر القبيحة
والمستقبل الفاشمة . يطق عظمة الفتى بعينه . يقارب
بهما حيرة الاسئلة المتبقية . الرجل عنى الأكياس قرب
الباب ، تحول الى ذاكرة تضيء بشيء مدمر . في رأسه
ضغط ينطق بالمشاركة . وفي إضاءات عينه تجيد لهذا
الفيضان الذي يعترى دورات الدم في أحضان الأكواخ
هذه الأيام . لم يخف كل هذا على قادر ، بعد أن شبء
الرجل واقما الى جانبه . وامتزج الثلاثة في ألفة . كان
لقاؤهم داخل جرح واحد . الليل مقفقف . رطوبة الجو
الساحلي ، وإنذارات الوضع بتلويحاته العنيفة . قطعت
للأرجل من الطريق ، ومن العافوت ما ساعد على
الانشغال العميق والمستمر بالإنصات ويظلة المعاناة . ثمة
سعال حاد مخفق يخرج قشور مدور محروقة لأهل

الدرب . يرتسي في الفضاء العارب من المدخل ، ثم يتناهى
في دجى التعاريج الدائخة . خاطر ملح مثل أجنحة غريبة
سوداء يظل الثلاثة خوفاً من دورة شرطة ، تفاجئهم وهي
تدّ عليهم باب الحانوت ثم تقبض عليهم . كان الألم
يضع في الأرواح والوجوه . ألم مثل هذا الشي القاسي
العزير الذي بات ينخل في حياتنا اليومية الغريبة .. إن
الرغبة في متابعة مجربات قادر غدت قوية . تستلقي في
العت . وتكوم على شتيه الجافتين . ثمة شفقة على
عمره الغض ، الذي يتحل العذاب ، ويلتحف الشوك .
ثمة مباركة للحلم الذي يكبره فيهم .. من خلال الدخان
المتكاثر . ينفذ قادر ابتسامة تمزج المحنة بالصود أكثر
ما تعني الخرية . يقط رأسه على صدره قليلاً ثم
يرفعه قائلاً :

— « عندما عرفولي من ثانوية (حي حديبة الجبل)
إزدادوا تطلقاً بي . [هذه ثانوية الشغب] قال
المحقق . و [هذا حي اللعة] أردف متضايقاً . سألني عن
أسماء ؟ . عن دعاهم شاغبي الثانوية ا .. عن رأيي
بالأوضاع اليباية ؟ وعن أسباب الاضراب الاخير الذي

يشل بقية الثانويات الاخرى ؟ . عن كتبوا عبارة :
« كهاذا امبراطوراً ولحداً عندنا » . وعن قذفوا المدرسين
الأجانب بالصجارة ؟ . عن حطموا الزجاج وكسروا
المقاعد ؟ ، أحدثوا هذه البلبلة القذرة ؟ . قال لي :
[إنني اعرفهم . لدي إقرارات كثيرة لكن أريد ان اتأكد
من مدى صدقك] . ثبت علي بأي شيء . تجبر وهو
يلكنني قال لي مثلك لا يستحق ان تصرف عليه
ثم سألتني عن بعض المدرسين . «

وعن دعوة أحدهم الى (القوضوية التورية) ، وعن
أفعال المدرس .. « خالد الشاهد » بالذات ، فهو المشاغب
الاول على زعمه . من فئة المفضوب عليهم . مطلوب
بأي ثمن لاله ضد رائحة الموت والناس في الاحياء
التي ليست جميلة في هذا البلد الجميل ، وغير سعيدة
في هذه المملكة السعيدة جداً بقصورها . هي ، يسونها
أحياء « المتزهر » ، « والمنظر الجميل » ، و ..
« التبر » . إنه ضد (المعادلة) غير العادلة ، والمعجيه ،
المتلبة في كل حال من أحوال حياتنا ، يصرون على
استقرارها ، يخلقون بوابات القصر أمام العلم وينكرون

فتأتا في ملكة تظهر بنا كما لو أن فينا - عطشا
ولاديا - لتقيل الأيدي ونحن محبسون داخل
هياكل اكل الدهر عليها وشرب . إنه ضد هذه الحرية
التي يمارسها - الأجانب - في فصول الدراسة والمصانع .
والشوارع .. والبنوك .. بصكوك سوداء . استاذنا:

خالد الشاهد ونحن الطلاب : متفانون في مناهج
اللغة .. تحفز المحقق فجأة بعد أن تركني الود بصت
أفكاري مدة هينة من الزمن . وهو يصوبني بعينه
الديدين . لكأنه سمع أفكاري . لوح بقبضة : (أمثال
خالد الشاهد وأمثالك يجب ألا يعيشوا في هذا الوطن) .
قلت في نفسي « الوطن خاص بالخصوصين وبأدواتهم
الغنية : لم تزل قلة معروفة وغير معروفة لبقايا فيضانات
التر » . رفعت صوتي هذه المرة : « نعمن لا نعيش
فعلا » . جروني . سحبوا ناني . حثروه بين أسناني
وضغطوا ذقني الى الأعلى بآلة تشبه النير كرروا أسطوانة
الأسئلة مرات . بقوة ضربوني . كدت أتشكك حتى
باسي . كدت أسقط . أنا لا أصدق أنهم حرروني الآن .
لهم جولات أخرى ممي بالتاكيد . القلائل متعة . والنساء

قائمة في كل مكان .. سينفذون تهديداتهم بالعقاب
الجماعي . فولي العانوت عطية يؤكد بصوت مختنق
قادم من اغتراب ، وانفعال ، ومزاج ردى .

حقيقة . ثمة نشاط للشرطة غير عادي بدأ يجري على
مرمى قريب من حينا . ظاهرة الإضرابات تغزو المؤسسات
والإدارات والمجمعات والمدارس والمناجم . عطلوا الدراسة
في أكثر الثانويات . الشرطة تتدخل لضرب التلاميذ
والأساتذة . ثانوية « زين العابدين » في حي المصودية
سدت أبوابها لشهر فرضوا تعويضات على الجميع لقاء
الأضرار والمحطات . ولن يقبل دخول أحد إلا بإقرار
خفي من الولي بعدم الشعب والإضراب . تكويهم
تجربة سنوات الحرائق الماضية في « سر من راي »
وبقية المدن الأخرى . إضراب التلاميذ توقيت مرعب لهم .
وها هم — كما ترى يا قادر — يحكون قبضتهم على
البلاد . نحس بها أقوى في حينا المعدم هذا . الله
يجازيهم . ولا بد من مبادرة من قبلنا .

لذع في الصدر يتحرك قادر على أثره في مكانه موافقاً
في قوله :

بالطبع . حي الضحايا . ساكنين ومفلوبون وضعفاء .
ومياومسون وحراس لأبنية الخصوصيين وفلاحون
هجّرتهم العدم الى العدم وماحوا سيارات وبائعون
على العربات اليدوية او بدواب مريضة ، وموظفون القوا
في مصير غير مصيرهم عندما سئدت في وجوههم أبواب
التحصيل الدراسي نتيجة سياسة التفقير والتعليم . كل
هؤلاء ، منفضون ، ومجرمون . ملامحهم التي لا يكون
غيرها لم تعد تعجب السلطة ولا مصوري الياحة .
اولادهم مزعجون . لا يفرقون بين احتفالات أعياد
الميلاد وبين أعياد المملكة العربية العيدة التي لا تباعد .
إنهم — من العموم — الخطرين .

يقول عطية في التبايع وتصميم :

الحياة غدت متحيلة يا ناس . ونحن في صعود الى
أسوأ . لكن لا بد ان نصل ذلك اليوم . لا بد .

ضيف قادر متعمدا :

أبي قال شيئا من هذا ، الباردة . لكن في ذهنه ان لترك
الحي . قال : وقت علينا الأعين ، ويجب الاختفاء في مكان

آخر . أبي يبقي السرة . اي سرة في ظلم فانسح ! .
رفضت . صرخت في وجهه لأول مرة . قلت له : إني
أحب هذا الحي . تحت شبه العارية ولدت وبين مجاريه
درجت . لن أهرب من نفسي المصنوعة من ظروفه . أبي
لم يفهم ، إلا حين رأى إصراري واصرار رفاقي المطاردين
في الحكومة . لن نبقي أبداً ، كقطط عجفاء ، تختفي . أو
تضيع في الشوارع ...

سحر الشارع الغشن

على حصار الكلاب المحقونة

الثلاثة يدخلون . في داخل كل منهم تربض موميقي
كالتقصف البطيء . . الكوت ساد قليلاً . الأجساد
المحكومة اهتزت اهتزازات لها معنى . ثمة ذبذبات
تسحرجت في الصمت القابل لتزفعا . صوت خفي ، مرق بخفتي
الخارج ، قلقل الضوء الأسفر ، فقطعه بحدة عند فتحة
المدخل الذي اتجهت إليه أبصارهم . ظلمة ضافية في
العيون والنفوس . فضول . وإحساس بسكين يعاند
نحتها شي أن يتداعى . لم يطل تحديثهم . الحركة اختفت
في نداءات غير مفهومة . بدأت تكبر .

يعلق علياً على الفور :

ألم أقل لكم منذ صباح اليوم ينون شيئاً خطيراً
يسعون إليه في خفة ودأب يقولون : « إنهم ينون زرع
الأسلاك الشائكة حول الحي » .

ويقولون : « سينمون دخول أو خروج أحد بعد
الحرب » وقد يلقنونا درساً . الحالة تتعقد . سكت ؟
تنفج أسارير قادر على غير توقع من الرجلين .
يضغط : فجأة : طرفاً وامضاً تليطاً في دهشتيهما ، لفرض
لم يبين لهما . يعلق على الفور لهجة الساخرة قائلاً :

نعم . وهل نحن أفضل من الشاهنشاه إزبا مهر
وحاشيته المبعلة : إنه يطبوع . كل يوم ، بزيادة من
الرجال والأسلحة والأسلاك وكلاب الحراسة . ما أحد
أحسن من أحد . أليس كذلك ؟

يضحك الجميع بغفوية ومرح غامر ، ثم في تشف ، ثم
في أمل محيب بما يقطه « المثل » — بالمقارنة — على
أوضاعهم في المملكة .

يقول عطية بعد قليل في حكمة غير مازحة تماما .

الذي يطوق ولو بعد حين .

ثم ترقب كلاماً من قادر . لم يتكلم قادر . عادت
لتسكن في وجهه سراته الباخرة . اتفه العريض ينبيء
بالقوة والصدق . الرجل الثالث يفضل أن يضم ويشارك
ويعترف دون أن يدخل في حوار مباشر . خيوط الظلام
مع مرور الوقت تكسب الأثير والأشياء والمخلوقات في
الحي . . تخنقها في رزمة واحدة . متافرة الجوانب .
الخارج هاديء هارب زلق مخايل رطب . رائحة بول
تفاضة تتريح عند أنوفهم محملة بقتار طيخ رديء . هدير
الشاحنات القادمة والأوامر التزقة وصدى ضربات المطارق
جعل توقعات خيفة لكن ممكنة تجلج في خيالهم
يانبعاث عملاق بكعين صامدين يحني رأسه الضخم وهو
يعبر بوابة الدكان لينقض عليهم . اللحظة يصق قادر
باتجاه الباب كأننا يلحن الطنفة المؤولة عن نمو نظفة
مشاعر الخوف المترصد فيهم وبهم . . بسبب الإذلال :
والإدماء اليومي ، ولب الحياة التي يجب أن يمتلك
المسحوقون مصيرها بحرية .

وها صوت منخفض متعجج بوضوح لا إنساني يرسله
عليه داخل الأفكار المترابكة في الرؤوس التي ما تزال
تلقى الريح من المدخل بقلقلة وأعصاب مشدودة ، في حين
استنعت الصدور مع الاكواع على حوافي القاطع الخشبي.
المرض الذي يصدر وسط واجهة شترينات المحل -
بقعة يستقيم عليه خلف القاطع وهو يقول :

بالطبع . جاءك نبأ « العصابة » التي تخطف الأمتان .
وتقتلهم . يظهر أن أماننا - نتيجة ما نحن عليه - مزيداً
من البلاوي لا يعلم أشكالها وألوانها الا الله . يقول
قادر :

أجل . ومع ذلك فالشرطة لاتعمل جيداً الا حين
يتعلق الامر بـ « مخصوص » كل شيء مسموح هنا ، ما
حاشا الياسة ، افعل ماأثت من دونها يطل بك الاجل .
والعمر يقصر إذ لا تعرف كيف تنزلق بهدوء داخل قيد
العتة بعيداً عن الجهاز البورسي ومحتكري مصائر .
سنوات ولم يُقبَضْ على « عصابات » قامت بهوادث .
رهبة في كل مكان . ثمة أشياء أكثر أهمية ، دائماً ،

تسأل « القوى » أما « الصت » فغير معقول عندما يتعلق الأمر بخطط أطفال « الكبار » . هنا ، فقط ، تحركوا بجدية . وهذا شيء سياسي تماما . كان الفقراء وحدهم الضحايا . « العصاية » راحت تطلب « فدية » خائلة . — عشرة آلاف — . لا يملك الاب منها عشرة دوايق أحيانا . أبي قال لي : (لو خطفوا أحد اخوتك . وطلبوا الفدية ذاته . لستهم آخر أو يقتلوني ويربحوني من هذا العذاب . ليذهب الى جهنم كل شيء) .

انظروا عطية . غيرنا يملك قصورا هنا في — البلاد — وهناك — في كل عواصم العمر والاستغلال — ، تصرف عليها ملايين مروة من عرقنا وخيرات بلادنا . . مع ذلك تطالعنا — وسائل الإغناء والتهجين — التي تخص سره المقدس وحده ، لتحنا — نحن — على التقشف والشدة على البطون . ومتى كانت ظروفنا المزرية تسمح لنا بغير ذاك . كثيرون يلبون رداء الظلام ، ليضطادوا مع الحيوانات الضالة شبا في قمامات آخر الليل . . في تلك المناطق التي تام في النهار . كم واحد يعيش دهره على

الخبز والشاي فقط ، ومسحة من الزيت إن وجد . كم
من العال ترق دقات قلوبهم المكدودة ، كل يوم لتبني
بها أحلام « الف ليلة وليلة » في منازل طبقة معطوطة .
نجم ثروتها الهائلة يبر وتبذرهما يبر ..

عطية يتسم ابتسامة خفيفة ذات مغزي ، يقاطعه قائلاً :
« إذا . اسم يا قادر . كان يا ما كان ، انتهى إلينا في
آخر الزمان ، أن أحدهم بنى قصراً يحاكي إرم ذات العماد ،
وأرسل إلى ما وراء البحار يطلب أنابيب ماء ذهبية ،
فاعتقدت « الشركة المذهبة » أن في الأمر التباساً .. ولما
طلبت منه التفسير والإيضاح ، ثارت ثورة الرجل ، نسف
أهم الشركة بالغباوة وانحدار المستوى .. وبالمناسبة هذا
الرجل رباط خذائه من ذهب أيضاً .

يقول « قادر » : اترنى ؟ حتى هؤلاء المحتكرون
الأجانب . لم يصدقوا « هذا الفه » . يؤكد عطية أيضاً :
لو كان في قلوب هذه الفئة ذرة من « إيمان » يدعون
حمايته باسم « الدين » لتأمين مصالحهم واستغلالهم ،
والدين منهم بريء ، لما نسوا أن المذريين كانوا أخوان

الشياطين . وصدق الله العظيم . إن قائمة المصاريف
اليومية لكل واحد منهم تطعم عائلات عريضة لمدة شهر .
الكلاب حانهم أحسن من حانا .

يقول قادر : وإبامته بالمائة المتونة شفيه تأخذ
حيزاً واسعاً من عضلة فكه الأيسر :

نيت يا عطية نوعاً آخر من الكلاب ، ما يباوي
واحد منها ، أحياناً ، شعوباً ، ملايين من البشر أمثالا .
نوع كان له على مر العصور أهمية قصوى وخصوصية،
ازدادت مع ازدياد تنوع ألعاب الهينة واللفظ واللوان
القسع ومكافحة ما يدعونه بـ (الشغب) وإحكام الحراسة
والوصاية .. نوع من مهته أيضاً العمل على نشر تلك
« الكلية » .. في الداخل .. وفي الخارج .. إنه زمن
كلاب الحراسة يا عطية . لكنه زمن « المشفقين أيضاً »
و « الفقراء » و « كثافي العورات المختومة جذعـ
أعور الدجال ـ المولود سلفاً في صلب ولي القبيلة المفروص
فرضا . الموضوع أثار فيهم كوامن عدة من السبي القديم،
ومرارة الأيام الباكية وحكايا العقر ، والعبودية

والاستغلال . في أول الأمر - السهم الحديث الى
مشاعر متورمة بكاء اخلت تحشوم في اكياس رمل
ثقيلة ، قومت اقدمهم كأنها ملفونة في بركطينه كبة .
ثم خرجت جراحهم على أيديهم وأفواههم على أرجلهم
ورؤسهم . . وصفارات أفاع جائعة تحاصرهم تلس طريقها
إليهم فظهروا مثل ، جراد . بلا أعشقة على وشك الانطلاق .
يعرف كل واحد منهم أي يؤس موتور . في حشا الآخرة .
آية قوة أيضا تعالج ثمة يخطو بها نحو قلاع ججية
معرومة بنجاح لا ينقطع بدرجات صوتية مدروسة ومؤمن
عليها ند على أمثاله الامنيات وغير الحياة إنهم يعيشون
الآن زمنهم على الرغم من تزييف يومي من النقة والكن
ومختلف أوجاع الميلاد في طبقة معدمة موقة . .

يفكر كل واحد بأنه قد لا يسك نابيل الطقس
الجديد الطالع . .

قد يمضي ، لكن يوما ما ، على الرصيف ، على أفاريز
الطرقات الهائجة ، تلتحم اصداؤه مع الذين عمروا الأرض
بعد أن ولدوا من خاصرته المظعونة بقرون تيس القبلة
العربي ، المهجن . يقول قادر موجها كلامه الى عطية :

يجب أن نرى الجماعة . قد تعرض لاعتداء أيضا .
نحاول أن تدبر الأمر باكراً .
يقول عطية :

صحيح . تماما . هذا ما سافطه . سألحق بك بعد
أن أوثق الدكان .

غدت اللحظة مثل غمامة مشعة بأثقالها . يصافح كل
واحد منهم الآخر بصمت وحيية كأنه يعاهد . تقنات
العيون من سراج اللهب في الأعماق . تقول الحلم . تركب
الحلم ...

**الآن ، تخرج الاكواخ تحتفن الموت وهي تحتفن
ناتم الصباح المظلل .**

قادر يصطب من باب الدكانمبا . كأنه نافذة تحت
فجأة مل . رثيها . تسمع قليلا الى نداءات بعيدة في
أطراف الحومة ، والى آلات الحفر اليدوية تثقب الأرض
بعناد . أصوات محركات الشاحنات تجتر : تمدا او
تشد . ببللة كنية تثيرها كلاب الحراسة الصفار هذه
الليلة . يفضون في الحصار والمواجهة الى أبعد الحدود .

يبحثون عن المتاعب وستلقاهم كالزنك المحي . يطلق
صيحة قوية عبر سياط الليل الملتفة حوله . يضع يديه في
جيب سترته فيقدر بذلك على ضها الى صدره العاري
معوذا تقويها وانحلال ما تبقى من أزرارها وحين أخذ ينفذ
الير دخولا في عتق دياميس مررات الأكواخ المضيئة
بحيوتها المتأخرة إذ لم تتسلم باكراً للنوم في ذلك المساء
— راح يرقص فؤاده . . يركب تخوم أنشودة حب . .
وبعر . . وأبواق حصاد في أفاريز لم تعد تنفوق كية عديمة
العيلة . انسى لأعماقه أنا عجبا مداه ليس تلك الأعماق
في الأكواخ التي يسمع لحنها الحي الساهر . . فيجد
فيها نفسه . غداً يا قادر ترتفع المناجل . كلاب الحراسة
تريد أن تترخي عند الأسلاك الشائكة التي تور الحي .
تركهم ناعسا أكثر من تيه المهاجر . . تعثك أعضاءها
المتدلية بفعل شبق اتصار الطفيان وأدواته ، وتبول
بكرامة رائحة غادية . . . حتى يبت انططب في الطرقات
وفي الأفتدة . غدا ترتفع المناجم . زماننا أقوى . الأكواخ
على جانبيه ، ثقت السررات بدورها وبطونها وأعجازها
في فوضى وغفوية ، قاعدت قليلا أو كثيراً ما بين

ملوحها المهشة من الصفيح الصدى، الأحمر الملوّج من
هنا وهناك . تظهر إليه اللحظة ، متواشجة أكثر منها
مختلطة . زمزمة لحنا العيق يصل الى اذنيه مثل صوت
آلام امرأة تضع ، فيشتقّ الليل . توقف مكانه . الآن
لا فرق لديه في أن يطرق أي جدار . ليدق ذلك .. أو
هذا .. لكنه يعرف أين سيذهب الآن . يصل كوخ
« المَسْورِي » ، يطرقه : ثمة - يجيء صوت معجون
بالنفايات لكن ملتصع بالصحو والتبه أيضا .

من يكون ؟

يجيب قادر :

قريب .

الرجل الثالث من البلد الشقيق اعترضه شرطي أحمر
الأحداق وهو في طريقه عند مشارف الحي حيث تقع
برية قاحلة ترمي بها أوساخ المدينة ومهملاتها . بعض
أجزائها غدا محط أنظار أوراش متعدي البناء البُطْنين
العرافين الذين لم تُخفِ حركة مشروعاتهم الكنية مبلغ
استيائهم وقرعهم وفقدان صبرهم وهي تزحم الأكواخ
وتدلل عليها . الشرطي يتشم وهو يتطلع على هوبته .

. اخلى سبيله فقط لانه من بلد شقيق . يحفره من زبارة
 الحي الى اشرار لاحق لا يعرفه . راح يقطع مافة
 في درب ترابي ساعد سبيله الى حيث يكن قريبا من
 حوافي المدينة القديمة عند بداية الأتربة المعفرة السارحة
 حول احياء الصفيح . ١٠٩٠ تواريه شيئا فشيئا ، تفرقع
 تحت قدميه اشواك يابسة وعظام وحجار . أحس بقيط
 ظرات الشرطي تكوي ظهره . ثمة رائحة دم فائر اخفت
 تنتشر حواليه وترحم الله . عويل تنقله الريح . بكاء
 احتفال يدور في المدى . الظلة توحش قلبه أكثر . أصداء
 من الخلف تود أن ترددها إليها هي من تباريحه . يلتفت
 الى وراء ثلالات بعض الضياء تهوي من السماء باتجاه
 حومة الأكواخ الذي تبدو عبر العتات كأنها تحترق
 بأضواء الشاحنات الحاملة للمتاد والأسلاك الشوكية .
 وبغيرها من الأنوار انكاشفة لأماكن الحضر المخططة
 بشكل دائري . يبدو حي حدة الجبل الآن مثل جزيرة
 غائمة في الظلمات تحترق على تخومها في صمت متخبط
 اليم . البنايات المرتفعة على بعض الأكواخ القمينة تركلها
 في لوم كأننا تلمسرجها الى هوة لا قرار لها ، تحقنها في

جوانب أخرى • كشيء مستباح لا يستحق الحياة • يفكر
من يدري ماذا سيحدث غداً ؟! ألا يفجل من العودة سالماً
هذا الطريق ليرى - كما اعتاد - على صاحبه « عطية » ؟
بعد أن تغلى عنه في وقت لم يعد هناك شك في حاجته إليه .
هل يمكن أن يتغلى الإنسان عن نفسه ويؤمن أنه لا يعلم
ذلك ؟ لظالما هزه عاطفته كرم « عطية » وصبره على ضيق
ذات يده ، وهو يطلب من دكانه بعض الرمق ، في الوقت
الذي يصرف هوال إمكاناته وقصور مدفوعاته للنائب •
لظالما شعر بشيء واحد عفن يزداد تفخفاً فيهما يوماً بعد
يوم • • وبقلق لائب باحث عن خلاص لم تعد تخفيه بينهما
الكلمات • لم يبق لدهما شيء يكيان عليه • يعين أوان
العزم والاختيار • ليس من أجلهما على الأقل ، بل رحمة
بتلك الصفرة الدائمة التي تعطي سحنات وعيون أطفال
عطية ، فيتحضر بها وجوه أبنائه في بلده البعيد • من
يدري ما يجري غداً ؟ عندما تستهن كرامة الإنسان إذ
يحشر خارج الحياة ، تد الأسوار العالية وجهه وهو
يسعى من أجل قوته اليومي • • او عندما تتخذ
إجراءات جفرية مجرمة ضد أي إصرار من قبل المعلمين

والتلاميذ على اقتحام أبواب الثانوية في ظاهرة العي حيث
يقبلون عليها من جهات مختلفة محوقة .. أو حين تنتهك
حريات التنفّس والزبارة والاستقبال ورؤية
الأفق الذي اعتادوا على انراحه وتعامل كلاب الحراسة
معهم على أنهم حيوانات غبية مصورة اشداء على
حزيرتها الى حد القتل ماذا يحدث غدا ؟ عندما تعاني
العومة من ضغوط قطع الماء وحرمان الأكواخ من « جب
القاية » الوحيد الذي يظل الزحام عليه طوال النهار منذ
التجر والى ابتداء الليل ، ومن التمرين والانذار بالتشريد،
بخامة وان الضغط الأخير موضع بحث وتهديد يمارس
عليهم منذ زمن ، ففدا تنفيما يسوء حياتهم الآسنة أكثر
بخطوط جديدة .. وجاءت فرصه الآن للتنفيذ في قوة
« الأشرار القتالون هل يدرون ما معنى أن تشرد مع
عيلنا وفهلك في المراء » .. هكذا قال له علية ذات يوم
ولا بد أن يتوقعوه حين لا يحنون رؤوسهم للأسواط .
فالأكواخ بناؤها ليس قانونيا ، ومخففة على الصيد
الغني . و « سر من رأى » مدينة سياحية يجب ان لاتصدم
المنظر الوقعة والكرهة أذواق ومشاعر من جاؤوا يبحثون
عن الشمس والجمال والعجائب والياض .. هؤلاء الذين

ملأما التقى بهم في الدروب بنظاراتهم المكبرة وآلات
تصويرهم الثينة وأنوفهم القطنية المحرة تشي بالتنقيب
والاشتغال الخائن . وبرأويلهم القصيرة الكاشفة عن
اتخاذ متخمة بالتغذية الجيدة ومقشرة باستتاعهم الجيد
على الشواطئ . . مدن الصفيح القائمة على هامش الحياة
تتشر كظلال غريبة خارج الموت خارج الحياة هنا وهناك
تقوم رمزا على مصادرة الأرض والخبز والكن والعري .
غدا ، يعرف أن الحومة ستقدم العربون عن بقية المهشين
بالتعف على أنهم أحياء . . بالمرصاد لاتخاذ القصاص
اللازم من المتبدين والقاصين ، وتؤكد أوان الألوان
للير الى النهاية لقلب كل شيء رأسا على عقب . عندما
خرج من بلد . يسمى تحت وطأة الحاجة ليصل في مناكب
الوطن المتخلع يبحث عن اخضرار ما موهوم ، لم
يكن يعلم أنه مباح أينما حل ، وأنه على الرغم من
بعض قوافل محروقة بقي يرى ارتعاشات الألم والهموم التي
وصت وجوه أهله هي هي في كل أفق يسمى اليه لكن العز
والحصار في « سر من رأى » قد بلغ مبلغه . أحيانا يشر
أنه لا أمل في مقاومة جبّة الأرواح والمصائر . . يتأمل

الفقراء في كل أرض .. يتأمل الزبانية .. لم يجد يجد
قدرة في متابعة أي شيء .. ليس لديه لذافة من أي نوع ،
حتى جلساته بين العين والعين مع « عطية » تؤدي إلى
وعى همتي .. يتحول أحيانا إلى بهران من الصمت المنفي
مثل جريان مع كل اتجاه ينتهي بصدمة رأس في سد
مغشوش . لا بدء من الزحف على قلاع النفي والفلال
المنهوبة من المحرومين . ثمة اشارات منه الآن . اضطرابات
عامة في عدة قطاعات : التعليم — الصحة — السكك
العديدية — المناجم — النقل — التجار الصغار — الميناء —
بعض مناطق الزراعة في الجنوب .. هذه القطاعات وغيرها
تحولت إلى مراكز جلب واستنطاق . ادارته حيث يعمل ،
بنات هي ، له ملفاً خاماً جاهلها تسهل به عطية طرده .
يخسر بأنه غير مرغوب فيه . « اذا كان لديك مطالب فلتجد
في بلديك من ينصت اليها . نعتذك أخيراً .. » . الأغنياء !
هكذا دالاً الاشرار . في كل أرض يملكون وحدهم الحكمة
العاكمة . يتقون على الستم فقط غير مقطوعة . منذ
أبهم استعدوا عليه رئيسه المباشر . حاول أن يستفزه في
مواجهة سافرة . العمال وقفوا في صف ضلأ عليه .

المدهوسون هم هم في كل مكان . الادارة تمارس الضغط على « المشاغبين » للعمل دوماً في الليل . انها تعلم أن بقايا الخرائب حيث يسكنون في الأحياء الشعبية أو في توءات حدود المدينة ، لا تيسر لهم أية امكانية للنوم المريح . عدة عائلات في قن واحد . وسلاح الارهاق يجعل فعله في السار . كم يؤله الضيم الساكن في الوجوه المكدة في تلك الشاحنات الخائقة ، تلك التي تحملهم كل يوم الى العمل ومنه . علب سرن وسخة . بعضهم يضطر الى التسك بالمصعد طول الطريق البعيدة اللاهثة بدفء وشوق الى ساعة حب لائمت الى زمن عملهم . آخرون تظل أنصافهم طائفة مع الريح كثيراً ما تخون أحدهم قواء المهلكة دون رحمة وهو مثبت ضارع العينين مهورا بالصمت والحزن والتهم . فيقط مغلغلاً صرخة أشبه باللعة يتلع بعضها صوت تعظم الرأس والصلب قبل أن تكتمل الحروف ، الشاحنة عجلة تستعمل في نقل الملح أيضاً . السائق فاقد الصبر أبداً . دربوه وهجنوه . كثيراً ما غادر العمل قبل الوقت الذي يسمح للعامل بالوصول الى الشاحنة من مواقع العمل ، يترك وراءه من يقضي ليله تحت سور العمل في طرف المدينة البعيدة ، تحديق به الاخطار وينوشه الحر أو البرد ، في حين يكبر تاؤلوعه

في بيوت لا تعرف الاثارة . كل شكائاتهم رفضت في المدة
الآخيرة . أخذت الادارة تماطل في تأدية الاجور ، وتطلب
من العمال أن يتدبروا وسائل المواصلات بأنفسهم ، في هذه
الأيام راحت ترص العمال مدداً زمنية طويلة أمام شبائك
الاداء المالي في اوقات ضيقة موحية للشاحنات حتى تغادر
قبل أن تسلم أجورنا . تترق صدورنا في الاضطراب .
وثقتنا ، بين لهفة الحصول على أجور عرقنا ، وبين لهفة
الوصول الى ماكن الليل التي نود أن نضيئها ببعض
الفرح . . جهاز الضغط البورصي لا يسلم . اقتتل سرقة
بعض الدراجات النارية لفريق معين من العمال . يريد أن
تتخلى حتى عن تلك المطالب الاساسية في زيادة الاجور ،
وتشيلنا في الادارة ، وفي اختيار النقابة التي لاتقع تحت
هوفه واستبداده . يره أن تفرق في أساليب التفكير ،
والتعريض ، ومشاعر المهانة والحاجة ، وارغمانا أن نكت
حتى على الظروف التعففية التي تعلق بنا في المعمل ،
أو خارجه ، حين يلقى بنا جثاً جافة على الاسفلت في طريق
الاياب . . وهكذا جاء اضراب الیومین السابقین . اصرار
العمال على تحقيق ملف المطالب يعني ذاكرة الكفاح .

التهديدات والمناورات ومخبوط الظلام لم تنفع . القمع
الوحشي والطرْد والسجن والتوقيف قوى غليان القوات
الحية المستنفرة لا تنزع حقوقها . هل من أمل ؟ . لم يعد
يجدي الهروب عنه الى أي أفق ؟ . هنا أو هناك بيان .
الأرض تدور حوله هو . الزمن لا يدور إلا حوله ، وبه .
إذا ، أبقى يدور بنفسه حول لا شيء . هل ينتظر شيئاً في
الأرض والزمن عليه أن يصنعه هو . لم يعد في الأرض
انتظار . ما اشتهي في قبضي . الريح تيل حيث أميل .
لا يجدي في الزمن انتظار . يتوقف بقوة معاندة . نبض من
توضع طريقه أوراق في في قلبه . شيء محبوس في نفسه
اهلت في قدميه . ضم في رثيه دلف هبة ريح قادمة من
جهة الحومة حيث صاحبه « عطية » . أيضاً شعر بقشعريرة
من يقدم على شيء نهائي وحاسم . تدفق يباس فيه .
استحضرت عيانه في الظلام زوجه وأطفاله من ركام الغربة
والبعد واللوبيان ، ها أصواتهم تنز بالضياع والشوق
والحزن . تهق عباب الليل عن ثغاه ومزامير قلب يغني من
خلف استار .. وجوههم كنجوم تطل مثل أعناق حمامات
عبر زوبعة غبار أحمر عابس .. أيادهم مثل أشعة مشنوقة

في اليم . يتوي عنقه ، عيناه في كآبة مضيئة رائعة الشجر .
حركات يديه وجفونه مدى يجيب : « رحلتي تطول وتطول
فيما بعد تهمون . » يطلق قدميه في النزلات المتعرجات صوب
الأكواخ حيث « عطية » . من يراه على البعد يحبه شبحا
يحاذر شيئا أن يتعبر تحته . يدخل في الغطاء شيئا فشيئا
حتى لا تتبع عليه كلاب الصيد ذات الاثداء الثينة .
قلبه ينزف بالحقد والتعب القديم والسفر في قطار متهالك
وينهمر بشيء من وهج شلال يشق طريقا بدأت مياهه
تتراحم فيه . . تنقر صدره غبطة حين اضطرت بضياء
بعيد بعض النباتات الكثيفة النامية في عنف على أسطحه
بعض الأكواخ القصديرية التي اقترب منها . المصيح تحول
بسواحل المناخ وتعاقب الليل والنهار الى تربة حمراء خصبة
يلت مع الاعشاب القصيرة كطمي معتم أخضر مهلل بعروق
صفراء . خطواته تعود ، مثل سهم ، الى تقوُب الأكواخ
الساخرة . دوره هو ، هو ، هنا ، أو هناك ، ليس لديه
سبب حتى يُرجله لحظة واحدة . بل عنده ألف سبب حتى
يقوم به الآن . لو تخلى عنه فلن يسمع منه ابدا . لا يمكن
أن يتلاشى المرء مهدورا دون ثمن . قرأ يوما في منشور

لقاته ما يعني : « ان اشتداد ملل الحصار الحقيقي والقسم يزيد من تصاعد ملل النضال ويؤثر على درجة حركة فعالية . وان ارادة المناضل الحقيقي قد يصيب حركتها الانحدار . ولكن ، لايسكن ان تلاشى .. »
يحيى برغبة عارمة في أن يتد صوته صرخة وهو يتفـ^{اً}
ضغوط الأعباء الرهبة التي تسي حديث تلك المراقـ^د
النته المتاكدة على من فيها في الأغوار . « أعلنوا موتكم
بصوت الحياة . فنحن داخل حصار الاوغاد . في عداد
الميتين » .

غدا ترتفع المناجل . يلاحظ بعض المتربصين في الزوايا
من سكان العلب يراقبون كل من يعبر المرات المدسوسة في
وهن هذا الليل . ثمة تحركات لبعض الأجساد المنخطفة
تعمل شيئاً ما ، وتستثير بصعوبة بتل أنوار كايية
منعكة على بعض ماتبقى من لطافات كلس اشهب . أجاد
ملتوية هالجة الأعناق ، لا يعنفها السير المظلم بما امتلات
به برك .. بسبب عدم وجود بالوعات تصرف المياه الملوثة .
أشخاص يتوجهون الى بئد معين ويضعون في سرات واحدة .
الكل ساهر . حتى لفظ الاطفال كان يصل الى اذنيه كانشاد
قوي عذب اجتاز زمن البراعة . في هذه الاكواخ تكبر
الحياة بسرعة كما يكبر الموت وتمول المصائر . يحس

يكرات الاسلاك الشائكة التي صدمت رؤيته بعيدا وهي
متكومة كالتفافذ الزرية ، تشرط عنقه وتلف في دمه . ها
هوذا ، باب « عطية » تعرف عليه بعلامة خاصة . يندق
بحذر وتدفق ماء . « عطية » لن ينام الليلة ! . سيفهم
برعة . ينتظر يظلي اللهب تحت قدميه . صبي يخرج ،
يتعرف اليه .

يقول الصبي :

— ابي جاء منذ لحظات . يجتمع مع الناس عند «عجون
علي » . آخرون أيضا عند « طاهر دياب » . ابي يقول
الليلة امتلات . لن تكون مهزلة خلف السور .
— دلني عليه ! .

ينيب الصبي قليلا ثم يعود . يترك الصبي يتكلم في
صحبه في الطريق المربل بطب الورق والكرتون . وهو
يتجهى دروس الانشقاق وذاريات الجداول يدخلان سرا
مضاء في اوله بقاتوس مدخن مرفوع بعصا على سطح كوخ
مدخله فوهة دائرية عرضة تبدو في النور الأقوى الملط
عليها كأنها على وشك الاحتراق . بعد قليل تنتفيء فيه
بطقوس ما يدبر هؤلاء الناس .. أبناء مشافر حية وعصر

بجره ويره • يشمر بأنه يطوي صفحات مدهونة بالخيف ،
والرمد ، والنخاسة • سيعيد أيام المستقبل المرتقب معهم ،
وفي شفتيه تفسر الحطب اليابس بشرارة ألف مرارة ..
ألف مرارة •



حين بقي عطية ، وحيداً ، للعظائم ، بعد أن ودّع
الآخرين • خرجت من صدره آهة مهوسة ، شمر أيضاً
بأنه موتور النفس ثقل الرأس لكأنه يركب جملاً هائجاً ،
شارداً بلا قتب • استقر قليلاً في وسط دكانه حيث بدت مع
باجها الضيق الواطىء مثل مضورة على وشك أن تكون
خاوية • بقايا أشياء وبقايا انسان • يلتحف بالظلمة أكثر •
أشواك هموم تدير بضاعة جديدة للرفوف التي تحط عليها
الغربان ، تنغزه ، وترديه في حضرة كالكيج • يقرح رئتيه
الهواء اذ لا يتنفسه جيداً • التجار يصمّون آذانهم عن
التوصل • لم يجد واحداً منهم يلفه شيئاً • بعضهم طرده
في اشمزاز • رائحة ملحية من شواطئ اليأس كهربت
فيه (حس البحر) الذي لا تعرفه الا حرفة البحر • رحم
الله ، بل لعن الله ايأماً قذفه أبوه صغيراً على رمال مستدة ،

مخاتلة ، في حالة لا تعرف الاستقرار ، رمال متصلة بازرقاق
لا فائي لا يمكن تجاهل عمقه الري وعبادته من أجل
الميش . كنت شاحبا معروفا ، ادخل كل يوم لعبة البحر
الجبار مع أبي المكشود الملامح الخريفية ، ذلك الذي
اكل من الدهر نصيبه والبحر نصيبه . كان ثمة اعصار
منهما دائم في عينه الموجعتين . . اعصار لا ترحم فوبه
مظاهر الكسل او السام البادية مني احيانا بلا مهادة او
ملاينة . بقيت طويلا ابيع حراشيف السمك وبقاياها للزارعين
قبل الساح لي من صاحب المركب يركوب البحر . وعلى
الرغم من رحلة الموت والحياة كل يوم ، لم أكن لأرى الا
الترق في سحنات البحارة ، يزداد يوما بعد يوم ، مثل
ذاك الشي القاسي الذي يختزنه البحر في أصواتهم . ينما
كانت تكبر على الدوام أفراح معروفة وغير معروفة في حياة
أصحاب المراكب أو صاحب المصل الذي كان يصنع
الردين . إشارة تلكثر واحدة او ضعف كانت تكفي لطرده
أبي وغيره واحلال بحارة جدد اقوياء مكانه . كم قضى
أبوه أياما على جنبات الميناء حين نوء صحتة يقي البحر
دموعه بعيدا على الشاطئ ، وهو يرقب المركب يتحرك

بدونه ، ينتظر مجهولا داخل البحر الذي يحجب مؤوته
أحيانا بلا رحمة . القانون غير موجود ، مادام بالإمكان
شراء كل من يحيه ، ومادام موجهها داخل نظام غبن ، ضد
أمثال آيه أصلا . ظلت الشمس بعد موت أبي تنهرني
جافة وأنا اتحمل مسؤولية الأسرة مثلما تحملها هو من قبل .
مصاريع الشمس كانت تزعق كاللظى وهي تبلمع الظلال
عبر مدى المياه المترججة الشاسعة من حولي كل النهار .
شراع المركب يدفعه الكبت والحقن وشيا من خوف
المصير . بقيت الرمال جهنية تسجل الذل والاستغلال
وتتص الومض وتغرب شيئا من عشق البحر الذي كنت
أتمنى أن أحياء معه وجزره بشراعي أنا . كنت أشعر أنني
سليل الفقراء ، انتظر ضائقتهم داخل عمليات غريبة استهلاكية
على شاطئ حارق يمارس فيه لعبتهم كهنه ومقاولون
ومندسون أذئاب - وكلاب وعناوين مرعبة - معروفة ببيع
الإنسان عبأ أن استر ! . عبأ ! . رأيت بعين المعجزة الجزر
لا بد أن يكون مدأ والمد لا بد أن يكون جزرا . رأى
الكهان والكلاب بدورهم شيئا من هذا الانقلاب وملامح
التفكير في ياض عيني . معلم المركب سجل بطاقة ادانة

في حقي . عندما كنا نملأ الشاحنات المرتقبة على الشاطئ ،
نمرها بما اصطادته أيادينا بالجهد والرق ، كنت لاأتحمل
ظرات البحارة الذين لا يجدون الطعام الكافي لهم
ولأولادهم اذ لم تصل اصابعهم الجافة الا الى النذر القليل
من السمك بين الحين والآخر ، وفي اوقات متباعدة . وحين
طالبت بأن تكون لنا حصة متواضعة ، يوماً ، من السمك ،
وجدوني مشاغبا ، بطراً ، سريع انتفس . طردت . وجدت
قسي في هذا الحي الفقير ، في الوقت الذي اشتغلت عاملاً
في نقل وحمل وتفطية مواد الزيت ثم غاسلاً للسيارات بعد
ذلك ثم عاملاً في أعمال الهدم ثم في تشذيب الاشجار ، أخيراً
تدبرت بعض المال ، واستطعت أن أبيع شيئاً في هذا الدكان
لهؤلاء الذين تقشت اليوم ذهولاً أبدياً على وجوههم .
و حين بدأت تؤسني معالم الذهول الموروث في الشفاء
والجلود أكثر فأكثر ، والكلمات المشوقة خطلاً وهي تطلب
ني من الدكان دون أن تقدر على دفع ثمنه .. اضطربت
أحوالي وأنا أتعامل معهم بالدين .. أنكرني التجار .
عيون اليوم سكنت معاجرهم ، حين كنت أرجو الاستدانة .
وهكذا كنت مرغماً أن أعين الخواء من حولي يوماً بعد

يوم . الى أين أفرّ هذه المرة .. ما عاد لي فرار وراء ضباب
أو سراب . اليوم هتكت الوهم . سألن الوهم . أحس
اللحظة ، أنه يحب ذبولاً راعفاً من أعاقه وهو ينقل بصره
على الرفوف المضطحة . المكان تضوا فجأة وانهر بشيء
من نور غريب . صحا أكثر على نوالد أصوات مفرقة من
الخارج . إدرك أن مكان الدكان الذي يقف ويتكاثف في
داخله ، قد اتسع حتى شل مدينة الاكواخ كلها ، بعد أن
غدا كل شيء داخل الأسوار الشائكة مهددا الى درجة
قوة الموت .. حيث الكلاب ترغب نقش ذاكرة خنوع في
حياتهم لا تنسى . لم يعد أمان لأحد في أي مكان . ولا أمل
في برامة حياة ، ولد مصلوباً على خشبتها منذ الولادة
وسيلظل كذلك حتى يقبر ، ويحمل أولاده من بعده أثقالها
المتزايدة . رآه يدور على الرغم من تقائه الآن وهو يعلق
باب الدكان الخشبي دون أن يشد على المزلاج . الأشرار
يتشابه الأشرار في كل مكان . يحين قطاف شيء من هذا
الزمن الذي يدخلون وحدهم في صلبه . تدفق خطواته ،
وأصوات أمره وموجة تداخل أصوات محركات وضحكات
تثقل على النفس الى حد الاقياء ، تلوب حول عنقه .

ضحكات مخورين بثياب لاعة يدون لمذبةة غدا .. لشي .
بحجم الحزن البشري القابع في قمر اعناق امثاله منذ اجيال
جاهلية عرية معتة . لهب أزرق دام ، يتراص أمام عينه
أيضا ، كالسنة البشر المقطوعة التي طالت عبر الدهر مثل
فيران حقيقة متحدية رافضة . غدا سيري الكلاب وجوها
حقيقية . وجوها امثلتها جماعته دائما فوق التهر ..
جماعته التي يتعلق قلبه بها الآن وهي تسرى بوجوهها
امامه ، يقبل عليها مثل رضيع ينفو لرؤية أمه .



التحرير في قنوات هاربة

نحاول القوي المعادية لاستقرار هذا الوطن وازدهاره،
والتي لا تجد ما يبرها على أرضه الا حين تكون على رأس
الحكم فيه ، ان تهول الأحداث وتحتل المشكلات وتربط
الاضرابات بأبعاد سياسية واجتماعية واقتصادية وانسانية ،
مما دفعها الى أن تحتل الاضطرابات حيث تستطيع قسوت
سمومها في التافويات والمصانع والادارات باسم الدفاع عن

مصلح الشعب وحقوقه وعن (الخدّام) الذين يدعونهم
باسم : (طبقة القوى الشغيلة) . فاشتط بها الخيال والكلام
والممارسة وهي تفند وتشرح أسباب هذه الاضرابات
والمشكلات وتعمل على نشرها ودفنها لأهداف قدرة لاتخفى
على أحد ولا تخدم الا الاستعمار والصهيونية وجبراتها
المرتبطين بنا الدوائر ، وحيث تؤدي الى تفكك وحدة
البلاد والعباد .

هذا بالفعل ما حدث عندما نشرت صحف هذه القوى
الشريرة متباكية ، خبر ما جرى من انشقاق واضطراب
وقلقة لأمن البلاد في حي (حديقة الجبل) حيث القضية
كلها لا تعدى كون احدى البسات أشعلت (سيجارة) في
ثانوية هذا الحي . وعندما طلبت المديرية منها أن تطفئها
وأن تمتنع عن العودة الى مثل هذه القصة الشيعة ، رفضت
التليذة الأمر ، مما أدى الى نويخها وطردها فكان نتيجة
هذا ان خرجت بعض التليذات في مظاهرة احتجاج على
ذلك لهوا وتقطيعاً للوقت . ثم انتقلت عدوى ذلك الى
التلاميذ الذين استغلوا هذه الحادثة ليمارسوا ألعاباً صيانية
في التكسير والرجم واحداث القلاقل والامتناع عن دخول

الصفوف . وبقي الأمر على هذه الحال أكثر من اسبوع
انتقلت العدوى بعد ذلك الى الحي كله والى علب الصفيح
حيث اخذ المتوردون يرجسون الشرطة بالحجارة عندما كانوا
يحرسون مبنى الثانوية بالتعاون مع التلاميذ والتلميذات .
كما اعتدوا على بعض الأفراد من — السكان الشرفاء
الذين أرادوا ان تعود المياه الى مجاريها وتعود الطمأنينة
ارجاء الحي ليعود أبنائهم الى الدراسة فهي المجدية وحدها
لهم . . ما اضطرنا الى تأديب الاشرار . وتلقينهم درسا
يليق باستهتارهم واجرامهم ، ومحاصرة الحي . ولقد
صادف أن شب حريق هائل بعد أيام اجتاح علب الصفيح
ابتداء من الساعات الاولى من الصباح مما ترك الفرصة
للقوى المعادية التي تدفع سبل هذه الاضطرابات الى
انهاك السلطة بالقيام بذلك . مع أن ذلك الأمر طبيعي . وحدث
مثله كثيرا بسبب طبيعة الأكواخ المظلمة بالكرتون والورق
والمقعاة أحيانا بالخيش والمسومة بالأخشاب والمزدحمة
بشكل تهدد فيه جيها مرة واحدة بأقل حادث حريق
بسيط . مع العلم بأننا قد حذرنا سكان الاكواخ في هذا
الحي من مغبة هذه الأخطار كما نهنا الى عدم شرعية بنائها

وانفرداهم مرات عديدة من اجل المغادرة دون جدوى .
وهكذا يتنا لشعبنا العزيز ما يجب توضيحه . عاشت
ملكنا العبدة في ظل سلطانا انهمام نصره الله . والسلام
عليكم .

دعاء

في تلك الفترة التي اشتعلت فيها النيران في اكواخ
الفقراء المتحددين الذين داهمهم الموت والتشرد والعطب
جاء في خطبة لخطيب في يوم الجمعة ما يلي :

« ايها الحقون . البوا الجلايب القلوكلورية ، فمي
وحدها مقياس وطنيتكم وتسلككم بدينكم ، ودلالة على
ارتباطكم بهذا الوطن الذي يريد المشوهون تحريضه
وتجديده . اطيعوا اولي الامر منكم . واياكم والطمع فهو
شر البلية وارضوا بالاقام والاحوال . وابتعدوا عن
الحسد .. و .. ارفعوا ايديكم الى الله ممي داعين بتهلين
ان يحفظ لنا مولانا وامانا وسلطانا وان يرحمه ويرحم
اجداده المتعين وان ينصر من ينصره .. اللهم انصر من

نصره .. انصر له ولا تنصر عليه .. انصر به ولا تنصر
بغيره .. انصر بنا ولا تنصره بغيرنا فيخذلونه . آمين .

ملخص ما جاء في تطبيق صرح في جريدة شعبية :

يبقى المحرومون والمطحونون شامخين أمام الارهاب
والعنف والقتل هذه المرة متابعين تحديهم . ونحن القوة
الشعبية بدورنا سنفضح ونكشف ونحاسب ولو تحولنا
الى رميم . ان التحرير والتفليل ودفن الرؤوس في الرمال
لن يجدي شيئاً غير تصاعد الرد . فالقمع والارهاب سيكون
مفيداً جداً لأنه يساهم بكيفية ملموسة في تسهيل وتمهيد
حركة التاريخ العتية من أجل الفقراء والمحقوقين التي
تسير دائماً الى الامام . واذا كنا قد اخترنا طريق النضال
فلنسير فيه الى النهاية .

تمت

الفهرس

٥	على نشأة الصدر
٣٧	قبل الطم
٤٥	الحارس
٦٣	الاشغال
٩١	ماعد الناس
١١٥	ذو العين الواحدة
١٣٥	ايقامة القطار الساكن
١٤٩	بالتدريب